من تراث أهل البيت

الإمام السجّاد

علىّ زَيْنُ العَابِدِينْ

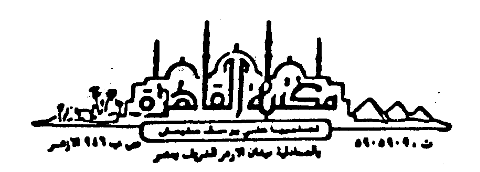
رضى الله عنه

الإمام سيد الساجدين

الإمام على بن الحسين

بقلم

عبد القادر أحمد عطا



الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع : ٢١٥٤ / ١٩٩٨

I.S.B.N

977 - 5437 - 44 - X

مكتبة القاهرة :

الرئيسي ١٢ ش الصنادقية بالأزهر

الفرع : ١١ درب الاتراك الأزهر خلف الجامع الأزهر

ص ب ٩٤٦ العتبة

تليفون ٥٩٠٥٩٠٩

القاهرة

جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾

[الأحزاب: ٣٣]

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾

[الشورى: ٤٢، ٤٣]

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا (٧٣) ﴾

[الأحزاب: ٧٢، ٧٣]

مدخل البحث

لكى ندرك الوزن الحقيقى لشخصية الإمام السجاد على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، لابد من عرض وجيز لفكرة التشيع وتطورها، ومدى انفعال الإمام السجاد بها، وموقفه من تلك الفتنة العمياء التى عمت كثيراً من أمصار الإسلام، وشملت مختلف وجوه النشاط الإنسانى كلها، لأنه شخصية معتبرة من ثمرات تلك الحركة العقيدية والسياسية التى سيطرت ولازالت تسيطر على كثير من البلدان والثقافات.

هو ثمرة من ثمارها، ولكنه ليس ثمرة مؤيدة لما وصل إليه التشيع من غلو وخروج عن الواقع إلى مستوى الأسطورة والخرافة والتطرف الروحى الذى يعدو على ظاهر الأحكام والقوانين العامة للإسلام، بل كان ثمرة هادئة متعقلة يحاول أن يعود بالمسلمين من الجماح إلى الاعتدال، ومن الغلو إلى التوسط، ومن التطرف الروحى إلى الخط الفاصل بين المادة والروح، فلا يغرب فى الروحانيات حتى ينسى الواقع، ولا يغرق فى المادة حتى ينسى الروحيات.

أصل التشيع

أصله فى اللغة ما ذكره تقيروزابادى من أن « شيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، والفرقة على حدة، ويقع على الواحد والاثنين والجمع، والمذكر والمؤنث، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً وأهل بيته، حتى صار اسماً خاصاً لهم، والجمع: أشياع وشِيَع ».

فالشيعة هم: المؤمنون بحق على رضى الله عنه فى الخلافة والإمامة، وفى تفضيله على إخوانه من الصحابة، إما بالنص أو بالوصف، وفى إضفاء الحق الإلهى على الإمام رضى الله عنه وعلى حقوقه السياسية والدينية معاً.

ولقد كان للإمام رضوان الله عليه منزلة خاصة، فقد أسلم صغيراً، وكان ختن رسول الله ﷺ، وألصق الناس به، فتشرب روح الإسلام، وعاش ربيب النبوة الناهل من معينها، وكان خليفة النبى ﷺ فى أهله، كما كان له من الصفات الجسدية وجرأة القلب،

وشجاعة النفس ما يؤله بحق لنوع من العظمة الظاهرة والباطنة قل أن نجده فى إنسان، ورأس ما يكوّن شخصيته العظيمة علمه الواسع العميق حتى اشتهر بفقه المعضلات فقيل فيه: «قضية ولا أبا حسن لها». وكذلك فتوته وفروسيته الفائقة مع تركه الدنيا لأهلها، وهيامه بالمثل الأعلى حتى أجمعوا على أنه «لافتى إلا على، ولا سيف إلا ذو الفقار».

أما بداية التشيع فقد وقع الخلاف فيها بين مفكرى المسلمين. فهناك إجماع على أن الحقل العام الذى نبتت فيه الفكرة يمتد من بداية الإسلام إلى ما بعد مقتل الإمام مباشرة.

فمن قائل إن التشيع ظهر فى حياة النبى ﷺ، إذ كان لعلى آنذاك مريدون روحيون باعتباره لازم الرسول فى اوائل الدعوة، وعاصر الحركة الروحية الهائلة التى انبثقت مع الدعوة فى قلب النبى عليه الصلاة والسلام ومن القائلين عدا أحمد امين، وأما ابن خلدون فيرى فى كتابه «العبر» أن التشيع قد حدث بعد وفاة النبى ﷺ، ومن قائل يقول: إن التشيع قد ظهر مقابلاً لحركة الخوارج، وابن النديم يقول: إنه ظهر حينما أطلق بنفسه هذا الاسم على جيشه الذى حارب به طلحة والزبير. أما الدكتور طه حسين فيرى أنه نشأ بعد قتل الإمام.

وعلى أى حال فالتشيع باعتباره مذهب روحيًا كان معاصراً لحياة النبى ﷺ، أما باعتباره مذهبًا سياسيًا فنحن نرى أنه نشأ مع ولايه الإمام للخلافة، وإن كان لم يتسع ويتبلور إلا بعد قتله. وذلك لأ التشيع الروحى للإمام كان واضحًا فى سيرة سلمان الفارسى، وأبى ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وكما يؤكد اليعقوبى قد تطور التشيع بأنه قد «تخلف عن بيعة أبى بكر قوم من المهاجرين ومالوا مع على بن أبى طالب، منهم: العباسى بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد، والمقداد بن الأسود، وسلمان، وأبو ذر، وعمار، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب».

بعد الإمام

كان الإمام قد لمس تدهور المثل الأعلى الإسلامى، وتحوله إلى المصلحة الشخصية فقال فى أسى وحسرة كما جاء فى نهج البلاغة: «ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم».

ولا شك أن من كانوا حول الإمام قد شعروا بآلامه وحسراته على تدهور معنوياتهم، ونماء مادياتهم، أو بمعنى أوضح على عدم التوافق بين قوتهم وجرأتهم وبين ما يهدفون إليه من تحقيق المثل الأعلى، وذلك حين اندفعوا بتيار قوى إلى التخاذل، وكتاب نهج البلاغة ملىء بما يصور ذلك الموقف الصعب الذى وقفه الإمام من شيعته.

وقتل الإمام، وانتصر الطرف المقابل بزعامة معاوية انتصاراً كاملاً فى الحقل السياسى. وازدادت حسرة الشيعة بتنازل الإمام الحسن عن الخلافة عام ٤١هـ حقناً للدماء، وإيثار الآن يتبنى آل البيت النبوى كل المثل الإسلامية التى أسسها جدهم العظيم، والتى توشك أن تهدد تحت وطأة الأهواء الصارخة، والفتنة العاصفة.

وفى نفس الوقت كان معاوية رضى الله عنه يؤسس ملكه على خط معاكس، فكان كما يروى الطبرى يأمر ولاته «ألا يجيزوا لأحد من شيعة على ولا أهل بيته شهادة». كما أن «بحرمان من عرف بموالاة على من العطاء، وإسقاطه من الديوان والتنكيل به، وإحراق داره» كما روى ابن أبى الحديد. وشاع لعن على وأهل بيته على المنابر فى صلوات الجُمَع على رءوس الأشهاد، وكان الهدف من هذا العمل المجانب للصواب كما يقول ابن أبى الحديد «أن يربى عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً».

ونجح معاوية فى إقناع أهل الشام بأحقية الإمام باللعن، حتى لقد رفض أهل حران الكف عن لعن الإمام حين أمرهم عمر بن عبد العزيز بالكف عنه وقالوا: «لا صلاة إلا بلعن أبى تراب». وكان الكثيرون يرون أن أبا تراب هذا هو «لص من لصوص الفتن». والحق أنه اسم أطلق النبى ﷺ.

كان معاوية يبذل جهداً كبيراً فى تشويه سيرة الإمام، حتى أنه أعطى «سمرة بن جندب» نائب زياد على البصرة أربعمائة ألف درهم ليروى للناس أن علياً هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥]، وأن قاتل الإمام هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وبدأ معاوية خطة الاضطهاد فى العراق بقتل حجر بن عدى الكندى، وعمرو بن الحمق الخزاعى، باعبارهما من كبار أصحاب الإمام، وقتل معهما ستة من أعوان حجر ودفن أحدهم حيًا، وهو عبد الرحمن بن حسان كما يقول المسعودى فى مروج الذهب.

وكان هذا العمل مثاراً للفزع والقلق والشائعات والخرافات والأساطير فى جو الكوفة، ونسجت أساطير عجيبة حول ميثم التمار، ورشيد الهجرى بغية تصوير الإمام بصورة روحية بحتة، ونسبت إليه تنبؤات عن مقتل أصحابه، بل وتؤكد ان الإمام لم يمت، وانه أجز بأشياء بعدما ظن الناس أنه مات، بينما كان كما روى الذهبى فى تذكرة الحفاظ عن رشيد الهجرى «يتنفس بنفس حى، ويعرق من الدثار الثقيل». بل إن بعضهم قال: إن كان بعد موته «يلمع فى الظلام كما يلمع السيف الصنقيل».

ونحن لا نذهب بعيداً فى مسالة لعن الإمام كما ذهب بعض أهل الغيرة الشديدة إذ قالوا قول الدكتور كامل مصطفى الشيبى فى كتابه «الصلة بين التصوف والتشيع» إن لعن على كان استمراراً لرغبة دفينة فى لعن النبى نفسه باعتباره عدو بنى أمية الذى هدم أرستقراطيتهم الجاهلية، وإنما نقول: إن معاوية مازال مسلمًا مخلصًا للإسلام، ولكنه لم يكن مؤمنًا بمبدأ المساواة بين المسلمين، بل كان يرى ان أرستقراطية العرب الجاهلية المتمثلة فى بنى أمية يجب ان تتحول إلى أرستقراطية عربية أموية إسلامية. فكل تاريخه يشير إلى حبه للارستقراطية، وآية ذلك كله ما كان عليه حكمه من مباينة للمساواة بين الخليفة والشعب إلا فى صدد السمع والطاعة حسب.

هى رغبة فى الحكم، وشعور بالحق فيه، وهو جامح فى صبغ الخلافة بلون من الأبهة والارستقراطية، ولا شىء غير ذلك أما الكفر الدفين، والرغبة فى هدم الإسلام فلا، وألف لا، وفى حب الرئاسة يكمن الداء، ويكمن اللدد والخصومة وإراقة الدم، فهذا شىء معروف غير منكور عند أولى الرأى، وفى مراجع التاريخ.

بعد الإمام الحسين:

خرج الإمام الحسين إستحابة لنداء ضميره أولا، واستنقاذا للإسلام الذى تتفلت مبادئه ومثله العليا يومًا بعد يوم، ثم استجابة لنداء أهل الكوفة الذين دعوه للخروج معه، ولكن التخاذل كان قد بلغ مداه بأهل الكوفة، فلم يستطيعوا ان يقاوموا إعزاء المال المبذول، فقتل الإمام الحسين، وقتل معه ولده على الأكبر، وثلاثة من أبناء الإمام الحسن،

وخمسة من إخوته، واثنان من ولد جعفر بن أبي طالب، واثنان من أولاد عقيل بن أبي طالب وعدد كبير من أعوانه وقتل داعيته بالكوفة مسلم ابن عقيل، والزعيم الكوفى هانىء بن عروة، ولم يجد من الكوفيين إلا شللا وخذلانا كما يقول المسعودى، وكما يؤكد أن كل من حاربه كانوا من أهل الكوفة، ولم يحضره شامي واحد.

لم يفلت من آل بيت الحسين سوى ولده علي زين العابدين الذى كان مريضًا وكاد عبيد الله بن زياد يقتله لولا ضعفه، فالحسينيون جميعًا من ذريته، وحسن بن الحسن وله ذرية، وأخوه عمر ولا عقب له، والقاسم بن عبد الله بن جعفر، ومحمد بن عقيل، كما يقول الذهبي في سير الأعلام.

وانخذل الشيعة مرة أخرى، واضطربت أحوالهم بين المثل الأعلى الذى يتمنونه، والقوى النفسية والبدنية التى تخونهم كلى حزب الأمر، فلجأوا إلى الأسطورة يزيدون من محصولها، ويعللون بها نفوسهم، واستغلوا الأحاديث الواردة فى فضل الحسين، وزادوا عليها من الأساطير شيئًا كثيرًا. فقد أورد الكليني فى أصول الكافى عن جعفر الصادق أن قوله تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، ينصرف إلى الحسين. فقد رآى ما يحل بالحسين فقال: إنى سقيم. كما روى: أنه لما كان من أمر الحسين ما كان ضجت الملائكة إلى الله بالبكاء وقالت: هكذا يفعل بالحسين صفيك وابن نبيك؟ قال: فأقام لهم ظل القائم وقال: بهذا أنتقم لهذا. والقائم هو «المهدى» كما هو معلوم فى عرف الشيعة. وهكذا تنمو الأسطورة فى جو الهزيمة والخذلان كما تنمو فى جو الجهل والظلام العقلى تمامًا.

ثم كانت حركة التوابين هى الصدى العملى الحزين لقتل الإمام الحسين، وكان زعماؤهم خمسة هم: سليمان بن صرد الخزاعى، والمسيب بن نجبة الغزارى، وعبد الله بن سعيد بن نفيل الأزدى، وعبد الله بن وال التميمى، ورفاعة ابن شداد البجلى، ولم يكن هؤلاء التوابون يريدون شيئًا سوى الانتحار فى ميدان الحرب تكفيرًا عن تخاذلهم فى نصرة الحسين، وكانوا يستندون فى حركتهم إلى قوله تعالى: ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم** ﴾. وانضم إليهم جمع من أهل البصرة والمدائن يرددون: ﴿ **أقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا** ﴾. وخرجوا دون قيادة منظمة لمجرد التكفير عن الخطأ ببذل النفس، ولذلك لم يستطع المختار الثقفى أن يضم هؤلاء التوابين

إلى جيشه الذى كان يعده للخروج على الأمويين لأنهم يختلفون معه فى الهدف من الخروج.

فى تلك الفترة من التاريخ خرج عبد الله بن الزبير، وأخذ البيعة لنفسه بمكة، وحاصر محمد بن الحنفية الذى يعتبر صدياً فى نظر الشيعة، وكان حصاره فى نفس الشعب الذى حوصر فيه بنو هاشم فى أول ظهور الإسلام، وظهر المختار بن عبيد الله الثقفى ثائراً على بنى أمية، ومطالبًا بثأر الحسين، ودعا إلى إمامة محمد بن الحنفية، ولكن محمد بن الحنفية كان قد رأى اندفاع المسلمين وراء الانحراف العقيدى إلى القول بتأليه الأئمة وإلى أساطير أخرى لها بالغ الخطر على عقيدة الإسلام، فنادى قائلاً: «إنا لله، ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلا ما بين هدين اللوحين» يعنى القرآن.

كانت حركة المختار تقترن بخرافات يروجها أنصاره، ويروى ابن حزم أنهم كانوا يقولون: إن الملائكة تنزل على صور الحمامات البيض لتنصرهم. كما نسب إلى المختار نفسه دعوى النبوة، والقول بالبداء، أى: إن الله كان قد وعده بالنصر، ثم بداله تأجيله إلى حين.

وكما شاعت المهدية مقترنة بحياة محمد بن الحنفية برزت فكرة الرجعة، فلم ير أصحابه أنه قدمات، وإنما أكدوا أنه يتحين الفرصة للظهور بالسيف باعتباره مهدياً، وقد أجمع على ذلك الكثيرون من أصحاب كتب الفرق، وفيها يقول السيد الحميرى شاعر الكيسانية:

لو غـــاب عنا عـــمـــر نوح أيقنت   منا النفـــوس بأنه ســـيـــؤوب

وهكذا انسحبت الرجعة والمهدية على غير ابن الحنفية حتى شكلت نوعًا من الاضطراب العقيدى خلط بين عقائد اليهود والمسيحيين والمسلمين في صورة لا زال المسلمون الآن يحلمون بها. بعد ثلاثة عشر قرنًا من ميلادها، كما تطورت فكرة الرجعة المقترنة بالمهدية فأصبحت على أيدى الكيسانية تشمل على بن أبى طالب نفسه، وانتهت إلى قول «المجلس» بأن الله يحشر فى زمن القائم أو بعده جماعة من المؤمنين لتقر أعينهم برؤية أئمتهم، وجماعة من الكافرين والمخالفين للانتقام منهم، وهى أحلام اليقظة تعلل الفاشلين كما تعلل الأم طفلها الباكي بمجد وعطايا أسطورية.

وتلك أقوال لا نجد لها أصلاً فى الإسلام إلا عن طريق التأويل الفاسد الذى آمن به

مجتمع الشيعة من قبل ومن بعد، حتى وصل بهم التأويل إلى إخفاء الحقائق الشرعية تحت ستار التأويل المعروف لديهم بالباطن. وهكذا اضطربت أحوال المسلمين، وغرتهم أفكار دخيلة، وروجت السرية لأن يعتنق الكثيرون من العامة تلك الأفكار الدخيلة، وتطورت تلك الأفكار، فيما بعد على يد بيان بن سمعان، والمغيرة بن سعيد البجلى، وأبى منصور العجلى، وأبى الخطاب الأسدى، وغيرهم إلى الكفر الصريح، وادعاء حلول الله تعالى فى أجساد الدعاة، ودعوى النبوة، كما كانت فكرة تجديد الإسلام كل مائة عام على يد قائم مشهود لهذا الغرض من آثار الفكر الشيعى المنحرف الذى لا زال يؤمن به جماعة غير قليلة من غلاة المتصوفة ومنحرفيهم. وقد نسبها القائلون بها إلى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية حيث قال موجها خطابه إلى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس: «لم تمض مائة سنة من نبوة قط إلا انتهت أمورها، لقوله عزوجل ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فإذا دخلت سنة مائة فابعث رسلك ودعائك، فإن الله متمم أمرك» وقد انتهز أعداء الإسلام من الإسماعيلية هذه الفكرة فوقتوا انتهاء النبوة نفسها بمائة سنة. بل إن الغلاة قد هدموا بهذه الفكرة ختام النبى ﷺ للنبوة والرسالة، وجهر بذلك أبو منصور العجلى المقتول عام ١٢١ من الهجرة إذ قال كما روى صاحب فرق الشيعة: «كان على بن أبى طالب نبيًا ورسولاً، وكذلك الحسن والحسين، وعلى بن الحسين، ومحمد بن على» ثم يقول: «وأنا نبى، والنبوة فى ستة من ولدى، ويكونون من بعدى أنبياء آخرهم القائم».

كان هناك غلو وإغراق فى حب آل على رضى الله عنه من جانب الشيعة وكان هناك غلو وإغراق فى الانتقام ممن يوالى عليا من جانب حكام بنى أمية، ولقد استبيحت المدينة المنورة بعد مقتل الحسين ثلاثة أيام فى وقعة الحرة: أموالها، ودماء أهلها وأعراضهم، واشتدت كراهية الناس ليزيد، وكثر الخارجون على نظام الحكم، وضربت فى مواجهة ذلك كله الكعبة بالمجانيق، وبدأت حضارة الإسلام الممثلة فى قوانينة ومثله العليا تتدهور تحت وطأة جبابرة بنى أمية، وأصبح الإسلام فى المرتبة الثانية بعد توطيد الحكم الذى اعتبر فى الدرجة الأولى، وفى سبيل توطيد الحكم كان الحجاج يخبر المنهزمين من جيش ابن الأشعث بين القتل والبراءة من الإسلام والإيمان، كما كان عمال

الأمويين يحولون دون اعتناق الفرس للإسلام بجبايتهم الجزية منهم بعد إسلامهم، ولا سيما أهل خراسان منهم.

لقد استذل المسلمون، واستهين بأقدار الإسلام حتى لقد بعث أحد الخراسانيين كما روى ابن سعد إلى محمد بن الحنفية يقول: «فما زال بنا الشين فى حبكم حتى ضربت عليه الأعناق، وأبطلت الشهادات، وشردنا فى البلاد، وأوذينا حتى لقد هممت أن أذهب فى الأرض قفرافا عبد الله حتى ألقاه». ووبخ عبد الرحمن بن أبى نعيم وهو من زهاد البصرة أهل العراق قائلاً: «يا أهل العراق، تسألوننى عن المحرم يقتل الصيد وقد قتلتم ابن بنت رسول الله ﷺ وقد قال رسول الله فيه وفى أخيه: هى ريحانتاى من الدنيا»؟ وترك أبو عثمان النهدى الكوفة وقال: «لا أسكن بلداً قتل فيه ابن بنت رسول الله ﷺ». ونهج هذا النهج خلائق كثيرون من الزهاد والعباد هاموا فى البرارى على غير هدى.

وهكذا تتمزق وحدة العالم الإسلامى، ويحار وسط هذا التمزق قوم مؤمنون حكماء، فلا يدرون من أمرهم رشدا يهديهم إلى أفضل الوسائل للحفاظ على إيمانهم، وللعمل على إعادة الوحدة والوئام بين أبناء الدين الواحد.

فما كان هناك إلا الغلو فى الحب، واستغلال الحاقدين على الإسلام لهذا الغلو فى الحب، والعمل على نمائه بعقائد سرية قصاراها القضاء على أصل العقيدة فى الإسلام، وكان هناك مخلصون لم يستطيعوا الجهر برأيهم، فالسيوف مصلتة، والأحقاد ملتهبة فى صدور الحكام، ولذلك آثروا الانزواء والانسحاب فى موجة من الزهد السلبى والبكاء على مجد غابر.

وكان هناك خارجون على الحكم هنا وهناك، منهم من يستغل ثأر الحسين فى سبيل الحصول على مكاسب دنيوية من الولاية أو الإمارة أو مجرد الزعامة الفكرية، ومنهم من عمل لنفسه طامعاً فى الحكم بحجة انحراف بنى أمية عن سنن الإسلام، ومنهم من كان عدو للإسلام كله، فما أراد بخروجه إلا البلبلة والاضطراب والقضاء على وحدة الفكر ووحدة القيادة.

وكانت المنابر تدوى كل جمعة بلعن صحابى عظيم هو الإمام على، وبلعن ذريته الذين هم أبناء الزهراء رضوان الله تعالى عليها، وكان هناك البقية الباقية من بنى الزهراء

تتجه إليهم الأنظار، فلعل الله يحدث على أيديهم أمرا يخرجهم من هذا الذل المضروب على رقابهم، ويخرج الإسلام من محنته القاسية، ولم تكن الأنظار تتجه إلا إلى الفرع الباقى من شجرة الإمام الحسين المباركة «على زين العابدين» الإمام السجاد، اما أبناء مولانا الحسن الذين أفلتوا من القتل فقد آثروا البعد عن المعركة كلها.

وفى هذا الجو الخانق الباكى عاش الإمام زين العابدين، يحمل تبعة هائلة يحار فى موجها العاتى أعظم الناس جراة، وأبيهم لسانًا، ولكن العناية كلاته فعاش حميداً، ومات حميدا يتوج التاريخ بسيرة من أزكى السير، ومنهاج فى الفتن يتخذه المسلم من اشد المناهج دلالته على المعية وإيمان عميق. ووعى ذكى يخدم الإسلام من خلال السلم والامان والسلوك النموذجى الذى يعتبر أبلغ من كل كلام، وأجدى من كل سيف.

العبد الفقير إلى الله

عبد القادر أحمد عطا

على مفترق الطريق

قبل أن نتحدث عن موقف الإمام زين العابدين من فتنة العصر يحسن أن نعرض لجزء هام من عناصر حياته هو عامل الوراثة الذى يكون ميوله وأحاسيسه ووعيه النفسى والروحى جميعًا.

أما أبوه فالإمام الحسين بن على رضى الله عنه، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ وفى أخيه الحسن: «هما ريحانتاى من الدنيا». وفى حديث أبى سعيد الخدرى: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». وروى فيه الترمذى قوله ﷺ: «حسين منى، وأنا من الحسين، أحب الله من أحب حسينا».

وهو الذى كان النبى ﷺ يحبه فلا يزعجه إذا صعد على ظهره وهو يصلى، بل يصبر حتى ينزل ثم يعتدل من سجوده، ورآه مقبلا وهو على المنبر فنزل فرفعه وأجلسه إلى جواره.

وجده لأبيه هو الإمام على بن أبى طالب، أول مسلم من الصبيان، أسلم وسنه عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثة النبى ﷺ، وبعد إسلام خديجة مباشرة، ولم يعبد صنمًا قط، وكان ربيب النبى عليه الصلاة والسلام، وأقرب الناس إليه، وخليفته على ودائعه، وختنه وأبا عقبه، وصاحب لوائه، وخليفته فى أهله، وآخى النبى ﷺ بين نفسه وبين على وقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

أما جدته لأبيه فهى سيدة نساء الجنة فاطمة الزهراء ابنة النبى ﷺ، وأمها خديجة بنت خويلد شرف نساء العرب والعجم، وشرف العقل الراجح والأدب الوفير، والوفاء النادر، والأمومة الفياضة.

وكفى بالزهراء أنها كانت أشبه الناس هيأة ومشية بأبيها، وأن النبى ﷺ كان يهش للقائها ويقوم، ثم يبسط لها رداءه الشريف، وأنها البقية الصالحة التى كان منها أهل البيت النبوى الرفيع.

وأم الإمام زين العابدين هى الأميرة «شهربانو» ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس، ويروى

ابن سعد فى طبقاته أن اسمها العربى «غزالة»، ويرى النوبختى أن اسمها «سلافة»، وكانت قبل أن تسلم تسمى «جهانشاه». هو إذن من الوجهة الوراثية يرث خلاصة الروح العربية فى أرقى وأسمى مدارجها وسماتها العالية من الأخلاق والذكاء والطهارة والعقل والإحساس المرهف، والفتوة العربية الإسلامية، والشهامة والنجدة والإيمان واليقين. كما يرث خلاصة الإحساس الفارس وشمول الفن الأدبى الرفيع، وسمات السيادة الرزينة والخيال الجميل.

هو إذن خلاصة العمق فى الخيال الأدبى من فارس ممتزجًا بالصدق والعمق من بنى هاشم، وملتقى السيادة من بيت النبوة العربى وبيت آل ساسان الفارسى. أى إنه كان ملتقى السيادة الروحية والزمنية جميعًا. وليس بعد ذلك من عز ولا مجد ولا فخر ولا سيادة ولا شرف فى موازين الرجال.

فإذا أضفنا إلى تلك العناصر الوراثية أنه عاصر جده الإمام وهو رضيع حتى بلغ سنتين من العمر، وأشرف أبوه الإمام الحسين على تربيته طفلا ويافعا وشابًا حتى جاوز العشرين من العمر، رأينا كيف أنه نشأ على خلائق من بيت النبوة قوامها والتواضع فى السيادة، والعلم، والكرم، والأدب الرفيع، والفهم الصحيح الواعى لمثل الإسلام وأهدافه، فلا يجنح به الخيال، ولا يحد من عزمه اضطهاد، ولا تغريه الدنيا بزهرتها وبريقها، وإنما هو بحكم الوراثة والمنبت إنسان يرى الحق من حيث لا يراه أهل الهوى، ويدرك المسئولية من حيث يدرك غيره نفس المسئولية ولكن نحو نفسه التى لصقت بالأرض فلا ترى مجد إلا على ثراها، ولا مثلاً أعلى إلا ما كان منها من نال وجاه.

هو رجل ينظر إلى السماء يحقق فيها مجده؛ بينما غيره ينظر إلى الأرض يحقق فيها جاهه، فتحقق مجد السجاد فى الأرض وفى السماء، وفشل غيره فى تحقيق مجد الأرض ولم يظفر بشىء من السماء.

شهد بعينيه وهو مريض تساقط إخوته ونبى عمومته بسيوف البغى على أرض كربلاء، ثم شهد سقوط أبيه سيد الشهداء فى معركة الفداء بعد جولة بطولية نادرة، ومن قبل كان قد سمع باغتيال جده الإمام وهو يعمل جاهدا لتصحيح خطوات المسلمين على الطريق، وحمل أسيرا مع الأسرى من نساء بيت النبوة ومن بقى من فتيانه السادة المغاوير، وشهد الخلاف بين ابن زياد ومن حوله على قتله، وأخيرًا لم ينس قط أنه كان

مطمعا من مطامع هواة المال فى أسره، إذ أخفاه رجل عن القائد الأموى كما يقول ابن سعد، ثم سلمه إلى ابن زياد نظير ثلاثمائة درهم، وكان هذا الرجل مع ذلك يبكى.

وعلام يبكى الرجل؟ ولماذا أخفاه ليسلمه بنفسه، وكيف يتفق البكاء على تلك الفعلة الشنعاء مع الرغبة فى العطاء المدخول؟

إنه الفكر المزدوج الذى أصيب به المسلمون فى عصر بنى أمية، الفكر الذى يؤمن بمبدأ وبنقيضه فى الوقت نفسه، وتلك بلية البلايا فى موازين السياسة والاجتماع على السواء. فهم يحبون آل البيت، ويعرفون أقدارهم ومنازلهم من رسول الله ﷺ، ويدركون مدى ما ينصب عليهم من غضب الله لإيذائهم والإساءة إليهم، هم يعرفون ذلك ويكنونه فى صدورهم، وهم فى الوقت نفسه واقعون تحت سلطان الهوى، مستجيبون لنزوات النفس، راغبون فى المال لتحقيق أطماعها، وإسكات زئير الشهوات فى أعماقها، فهم لذلك يعملون بكلا الوجهين، البكاء على مصير آل البيت النبوى، وعلى الضحية التى قبض عليها هذا الرجل - وأمثاله كثيرون من أعز بيت النبوة رجلا - وعلى نفسه التى لا ترحمه ولا تعفيه من تبعاتها حتى يأتى هذا الجرم المنكر الشنيع.

لقد قال الناس قبل ذلك لجده: «قلوبنا معك، وسيوفنا عليك». وهذا أصدق تصوير للفكر المزدوج الذى تسلط على الناس فى عصر بنى أمية فهدد تفكيرهم، وهدد حضارتهم، وهدد تاريخهم كله على مدى العصور.

وهكذا امتد تأثير الفكر المزدوج حتى شمل أولى الأمر وهم يستبيحون المدينة ثلاثة أيام، مالا وعرضا ودما فى وقعة الحرة، بما لم يحدث له نظير إلا بين أنباء الغاب، وشمل أهل الفكر فى ذلك العصر وفيما بعده فقالوا: لا ضير على الدولة من قتل الحسين وأهل بيته، فالفتوح الإسلامية قد امتدت شرقا وغربا، وقد أعز بنو أمية الإسلام ولم يذلوا رقاب المسلمين.

تلك أفكار شاعت فى العصر، ورددها رجال من عصرنا الحاضر، وقبل أن نفحص سلوك الإمام زين العابدين إزاءها نرى أن نقيم هذه الفكرة حتى ندرك جوانب العظمة الفكرية البريئة من الازدواج لدى الإمام السجاد.

وتتلخص قضية الحق فى تاريخ بنى أمية فى: الارستقراطية القرشية المنهارة، والرغبة الجامحة فى إحيائها تحت ظلال الإسلام، ووسائل الإعلام المجندة فى هذا السبيل.

أما ارستقراطية بنى أمية فقد انهارت بالفعل حينما أسلم زعيمها أبو سفيان والد معاوية، وأصبح فردا عاملاً فى نطاق الإسلام العام الذى يقيس أقدار الناس بمقاييس تختلف عن تلك المقاييس الجاهلية التى كمنت إلى حين فى أعماق أبى سفيان وأهل بيته، وأصبحت السيادة بمعناها الإسلامى الأصيل الذى ينآى عن حب السيطرة على الغير، وعن حشد الجموع فى سبيل الجاه الأرض الفارغ، بل إنما العزة ممنوحة من الله، ولاقوام لها إلا الإيمان وإنكار الذات، وهو ما لم يتدرب عليه الأمويون، أو كان عسيراً على نفوسهم آنذاك فلا تلين له إلا بعد أجيال من التدريب.

فما إن حانت الفرصة بولاية عثمان حتى أطلت الأطماع من مكامنها، ولم يكن ممكنا أبداً أن يتخلى الإسلام عن مكانه لتحل محله الجاهلية الأولى التى يسهل على هواة الجاه أن يصعدوا على أشلائها، فليكن الإسلام، وليكن الجاه تحت سلطانه، ولتكن الارستقراطية على أساس من عقيدة الإسلام التى ثبتت تجربتها فى تأسيس أمجاد ضخمة لآل بيت النبى ﷺ وللمتفوقين فيها من غيرهم، والتى قبلتها القلوب والعقول فلم يعد من الممكن التخلى عنها أو القضاء عليها. وحينما تصطدم ارستقراطية بنى أمية بإنسان متفوق، أو بمبدأ من مبادىء الإسلام، فمن الهين على وسائل الإعلام تشويه ذلك الإنسان، وتأويل ذلك المبدأ بما يخدم المصلحة الأموية أولاً وأخيراً، وجماع الأسانيد التى تدعم ذلك المجد المصنوع هو السيف أولاً وأخيراً.

وليكن هنالك فتوح باسم الإسلام، فذلك شىء يخدم أمجاد الأمويين ويخدم الإسلام نفسه، فلا ضير عليهم من اتساع الفتوح، لأنها مجالات للطامحين وهواة المجد من العرب جميعاً.

فلئن كان الإسلام يحتم إنكار الذات، ويوجه كل الطاقات نحو خدمة المبدأ والعقيدة والمثل الأعلى، واعتبار القدوة الحسنة من أخلاق الإسلام عاملا من عوامل الفتح وإقناع الأمم المغلوبة بالعدل الإسلامى المبسوط على الجميع دون تفرقة بين عربى ولا عجمى، ولا عظيم ولا صعلوك، فإن الدولة الأموية اعتبرت الإسلام وسيلة من وسائل خدمة الذات فى مجال المجد والمال، وبعثت عصبية القبيلة من جدثها، وأحيت العنصرية من رقادها، حتى لقد أخذوا الجزية من مسلمى الفرس ولا سيما خراسان، ولم تتورع سيوفهم عن الإطاحة بأغلى الرقاب وأعزها على كل قلب مؤمن، ولم تتورع وسائل إعلامهم عن تشويه أعظم

الشخصيات بلاء فى بناء الإسلام من صحابة النبى ﷺ.

إسلام فى ناحية، وقتل لرجاله المخلصين، وسيوف تجتاح رقاب آل بيت النبى، ونشويه لمثله العليا من جهة أخرى.

فتوحات باسم الإسلام من جهة، وقدوة سيئة تنفر المغلوبين من الإسلام من جهة ثانية، وعشرات من رجال القدوة الحسنة المنكرين لذواتهم، والمنادين بالمبادىء السامية، والكاشفين عن وجه الإسلام الرحيم العادل يلقون حتفهم على يد سفاح بنى أمية الحجاج بن يوسف، معلم الصبيان الذى لمع نجمه على البغى والطغيان والتنكر للقيم الإنسانية فى أبسط مظاهرها، والذى تفوح من نسبه وخلائق أمه ريح الغدر والتنكر للشرف.

فهل يمكن القول بأن بنى أمية خدموا الإسلام؟ وبأنهم لم يذلوه بإذلال المخلصين من رجاله ومن سلالة نبى الله لأنهم سيروا الجيوش شرقا وغربا باسم الإسلام؟

لا يقول بهذا القول إلا مريض بازدواج الفكر هو الآخر، بحيث يفصل بين الإسلام من حيث هو عقيدة، وبين الإسلام من حيث مثل أعلى واجب التطبيق، وما ازدواج الفكر إلا مرض عقلى فى عرف الطب، لا معتمد على رأى المصاب به بأى حال.

أما أصحاب الطريق السوى فى التفكير فإنهم يؤكدون أن بنى أمية جنوا على الإسلام، وأذلوا المسلمين، وأذلوا عظماء الرجال، وأذلوا آل بيت النبى ﷺ ليفسحوا لأنفسهم طريقا إلى الأرستقراطية القديمة التى بعثت على صورة أخرى غير الصورة الجاهلية الأولى فى الشكل العام، وإن كانت تتسم ببعض السمات الجاهلية فى غير العقيدة كالتعصب القبلى، وإثارة المسلمين بعضهم على بعض، وإلباس الباطل صورة الحق والاستمساك به، إلى آخر تلك الخلائق الأموية المعروفة للجميع فى التاريخ.

شهد زين العابدين هذه المأساة هو بفصولها كلها، ورأى من حوله أقوامًا يحبون آل بيت النبى ﷺ، ويتشيعون لهم عصبية بلغت ذروتها عاطفيا حتى جمحت بهم إلى الباطل الصريح، وكان قد اندس بين الشيعة أقوام حاقدون على الإسلام دسوا لهم بعض التأويلات الفاسدة التى تصنع آل البيت فى غير مواضعهم من البشر، وإنساق الشيعة وراء تلك التأويلات، ففسدت عقائدهم، وأساءوا إلى أهل البيت من حيث يحسبون أنهم يحسنون الصنيع.

لقد انحرف الأمويون المعادون لآل البيت ولغيرهم من ينقد سياستهم، وانحرف المحبون لآل البيت كذلك، فماذا كان موقف الإمام زين العابدين؟

كان موقفه نابعًا من الإسلام نفسه، بحيث كانت حياته هى حياة الإسلام الذى دعا إليه جده الأعلى صلوات الله عليه وسلامه وسط تلك الفتنة العمياء التى كادت تقضى عليه قضاء مبرمًا.

كان مسالما للأمويين، فلم تعد نجد الثورة بالسيف على الطغيان السائد، من حيث تجدى الثورة التى يتضمنها إحياء المثل الأخلاقى الأعلى للإسلام، وإفساح الطريق لهذا المثل الأعلى باصطناع المسالمة للحاكم المتعطش للدم، وبذلك استطاع الإمام أن يتقى شرور الأمويين، بل ويكتسب حبهم، وفى الوقت نفسه يجعل من أخلاقه مثلاً عمليًا مشهودًا يلتف حوله أنصار الإسلام الخالص من كل دخيل ويقمع باطل بنى أمية بلسان الحال. وقد شهد الإمام الزهرى بنجاح الإمام زين العابدين فى هذا المضمار فقال فيما رواه الذهبى: «كان من أفضل أهل بيته، وأحسنهم طاعة، وأحبهم إلى عبد الملك بن مروان».

وفى الوقت نفسه أعلن ضلال الشيعة وانحلال تفكيرهم الممثل فى تلك الصور الخيالية الأسطورية التى أضفوها على أئمة آل البيت، فقال لمن أثنى عليه من أهل العراق: «ما أكذبكم وما أجرأكم على الله، نحن من صالحى قومنا، وبحسبنا أن نكون من صالحى قومنا». وما له لا يعلن ضلال محبيه وهو الإمام المنكر لذاته فى سبيل دين الله؟

ومع أنه كان يستمع إلى سبّ جده الإمام على، وسب ذريته على المنابر وهو منهم، فلم يشأ أن يقاوم الجريمة بجريمة مثلها - وهو الذى لم يصب بازدواج الفكر - فلم يشجع السبابة وبخاصة الكيسانية فى سبهم لآل أمية، لأن المسألة عنده ليست مسألة أشخاص، وإنما هى أساسا قضية الإسلام الذى ينفر من السباب، ويدعو إلى الوئام، ولئن كان الأمويون دعاة شتم وسباب، فلم يشأ الإمام أن يجاريهم فى باطلهم، بل آثر الاعتصام بالحق، وقال للشتامين من الشيعة: «أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ١٠]».

ولم ينس الإمام أن يواجه الغلاة الذين وضعوا الأئمة في درجة من الألوهية بالامه وغضبه الشديد من مسلكهم هذا، فكان يقول لهم: «أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً».

هو رجل الإسلام المنكر لذاته من أجله، ولذلك التفت حوله القلوب، واجتمع حوله المسلمون باعتباره المثل الأعلى للقدوة الإسلامية الحسنة التي يجب أن تحتذى، وتمنى الجميع لو أن علي بن الحسين أصبح إمام المسلمين وأمير المؤمنين، إذن لعاد المجد الأول للإسلام، وامّحى ما جد فيه من بدع وأهواء.

كانت صلات الإمام مع العلماء المخلصين وطيدة، ولم يكن يرى لنفسه فضلاً على علماء العصر، بل إنه كان يسعى إلى سعيد ابن جبير الذي قتله الحجاج عام أربع وتسعين من الهجرة ويتتلمذ له، وكان يعتبر الغلو مهانة لآل البيت كما روينا عنه من قبل، وكما كان يردد دائماً: «ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء» ويشير إلى العراق. ودان بالصفح الجميل عن كل من أساء إليه، حتى لقد جاءه رجل فقال له: إن فلانا قد ذمك ووقع فيك. قال: فانطلق بنا إليه، فلما رآه قال له: يا هذا، إن كان ما قلته حقا فغفر الله لي، وإن كان ماقلت فيّ باطلاً فغفر الله لك».

تلك هي أهمية الإمام السجاد في التاريخ، وهي أهمية نابعة من تمثل شخصية الإسلام الحق في شخصه، ومن أنه لم ينفعل بما يسمع من لعن جده وأبيه ولعنه هو في كل صلاة جمعة، وعلى كل منبر، كما لم ينفعل بما أضفاه الشيعة على آل علي وهو منهم من أساطير تحلو في أعين طلاب المجد وفي قلوبهم، فلم يذهب به حق على عدو، ولم يأسره غلو من صديق، بل كان هو الإسلام الحق مجسماً في خلائق إنسان، وقل على وجه الأرض من يقف هذا الموقف العجيب الذي ينم عن تحكم شديد في العاطفة وسيادة عليها، وإضراب عن الاستجابة لها إلا فيم يخدم الإسلام وكفى. فزين العابدين هو المبدأ الحق في إنسان، وليس هو إنسانا بكل عواطف البشر في مبدأ.

ولكن باحثي العصر الحديث يحلولهم دائماً أن ينساقوا وراء المستشرقين في الحكم على رجال الإسلام البارزين من أمثال الإمام السجاد، وفي تقييم شخصياتهم وأعمالهم على صورة تخفى تفوقهم وتساميهم عن باطل العرف، وفاسد الموازين، وتعلل هذا التسامي وتلك العظمة بعلل سياسية خارجة عن نطاق شخصية الرجل العظيم.

قالوا: إن السبب فى التفاف المؤمنين حول الإمام زين العابدين هو أن أمه كانت أميرة فارسية، ومن ثم كان يحق فى نظر الفرس حمل التاج الساسانى، ويحكم العرب والعجم. وقد أيد المرحوم الأستاذ أحمد أمين هذه الفكرة فقال فى فجر الإسلام: «إن من عقائد الفرس الدينية التى كان لها أثر فى بعض المسلمين أنهم كانوا ينظرون إلى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية اصطفاهم الله للحكم، وخصهم بالسيادة، وأيدهم بروح منه، فهم ظل الله فى أرضه.. فنظرة الشيعة إلى على وأبنائه هى نظرة آبائهم الأولين». وقد نقل الأستاذ الدكتور مصطفى الشيبى هذه الآراء عن الكتاب المعاصرين وقال: إنها زبدة رأى «جوبينو» فى كتابه «الدين والفلسفة فى آسيا الوسطى». كما نقل عن الدكتور حسن إبراهيم حسن انسياقه وراء تلك الفكرة فى كتاب تاريخ الأدب الإيرانى، ثم دحض الدكتور الشيبى تلك المزاعم مؤكدا تشابه الأمر على الباحثين، فقد ثبت أن الموالى فى عصر زين العابدين لم يرفعوا صوتًا بتلك الدعوة، كما أن نظرية النور التى شاعت فى ذلك العصر والتى يمكن أن تكون مستند اللقائين بهذا الرأى قد ظهر أثرها متأخرًا جدًا عن حياة زين العابدين.

والدكتور الشيبى مشكور لأنه لم يغتر بقول المستشرقين، ولا بأقوال من حذا حذوهم. ونزيد عليه فنقول: إن التفاف الناس حول زين العابدين كان نابعًا من رغبة أكيدة لدى الناس بوجه عام فى رتق الفتق الكبير الذى حدث فى الإسلام، ولم يكن مؤهلا بهذا الأمل على الإطلاق غير زين العابدين، ولم يكن أنصاره مؤهلين أيضًا لحمل السيف.

كانت المشكلة تتطلب رجلاً هادئًا متزنًا، يدرك مصلحة الإسلام أولاً وأخيرًا، ويضحى بصالح نفسه فى سبيلها، وينكر ذاته من أجلها، ولا يفرط فى مبدأ خلقى إسلامى حتى ولو كان فى ذلك التفريط رئاسته وسلطانه، وكان عامل الوراثة هنا يؤهل زين العابدين لأن يكون هذا الرجل، فجده الإمام على رفض مبدأ الرشوة ليحقق لنفسه نصرًا أكيدًا على جيش معاوية، ويوطد الملك والخلافة لنفسه، إذ لم يكن الأمر يتطلب منه سوى دنانير يوزعها على الجيش فى مواجهة الدنانير التى أنهالت على جيش معاوية وبرقت فى قلوب جند الإمام، ولكن الإمام كان يرى أن المشكلة ليست مشكلة على بن أبى طالب، وإنما هى مشكلة سيادة الإسلام، وليست مشكلة جيش يرضى ويسخط، بل هى أزمة الإيمان الذى يدفع إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس لوجه الله.

لم يكن الإمام يجهل هذا، بل لقد سار فى سياسته عن وعى سار على نهجه حفيده زين العابدين من بعده، وبينه وبين جده فدائية أبيه الانتحارية النادرة فى سبيل الحق وهى من نفس الطراز الصادق والمنكر للذات.

لهذا التشابه وحده التف المسلمون حول الإمام زين العابدين، وأعجبوا بابن بنت النبى الذى وضع نفسه موضع التلميذ لأحد الموالى وهو سعيد بن جبير الذى قتله الحجاج، وكان تلقيه عن سعيد بن جبير فى الواقع ضربة فى صميم الشرف الأموى الذى احتقر رجاله الموالى، واحتقر المسلمين من غير العرب، كما كان ضربة قاصمة للشيعة الذين كانوا ينسبون إلى الأئمة من آل البيت اطلاعهم على العلم السرى، وعلى مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس، وتقدير التنزيل على التأويل، وتصوير الظاهر على الباطن التى أثروها عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية.

لم يشأ زين العابدين أن تكون القاعدة التى يدعو فيها إلى المثل الأعلى المتمثل فى القدوة الحسنة والتى تعمل على إحياء ما هجر من مبادىء الإسلام ضيقة ضيق قاعدة الشيعة وحدها، أو قاعدة العلماء وحدهم، بل شملت قاعدة قدوته الحسنة العلماء والشيعة والعامة وحكام بنى أمية أنفسهم، وأصبح بهذه السياسة الحكيمة أمل الملايين، وملتقى أبصارهم.

لم يكن هناك غيرة يمكن أن يلتف حوله المسلمون بقلوبهم، ولم يكن هناك غيره يستطيع أن يصل بصوته إلى أسماع المسلمين، فهو رابع الأئمة عند الشيعة مسبوقا بالإمام على، والإمام الحسين، ثم محمد بن الحنفية، ثم الإمام السجاد الرابع.

وكان الغلو قد بدأ منذ عهد الإمام على، ولكنه لم يتخذ فى عهده طريقًا مستقرًا، لأنه كان يقمع كل من يخرجه عن دائرة الإنسان أما الأمويون فقد غلا جيشهم غلوا فاحشًا فى تصوير الجمل الذى كان يحمل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بصورة روحانية هو الآخر، وذلك حين أخذ رجال من الأزد الذين كانوا يحيطون بالجمل بعر الجمل ويفتونه ويشمونه ويقولون: «بعر جمل أمام ريحه ريح المسك» كما يقول الطبرى، فلم يكن غريباً أن يبادلهم الشيعة غلواً بغلو ولكن فى أئمة آل البيت لا فى الجمال وغيرها مما مسه آل بيت النبوة.

ولم يكن الإمام الثالث محمد بن الحنفية بمستطيع أن ينفذ بصوته إلى الناس – وكان

يكره الغلو - لأن ابن الزبير كان قد حاصره في الشعب، وكان عبد الملك بن مروان يحول بينه وبين الاتصال بأنصار أبيه، فما زال ينتقل من بلد إلى بلد حتى مات بالمدينة، وخلفه ابنه أبو هاشم عبد الله، الذى يصفه الأصفهانى فى مقاتل الطالبين بأنه كان «لسنا خصمًا عالما وكان وحى أبيه». ولكن ما أثر من تاريخه يقول: إنه أحيا فكرة التنبؤ بالمغيبات، وذلك ظاهر مما رواه الأصفهانى من أنه أخبر السفاح بأنه سيموت عند وصول وافدين أحدهما من السند والآخر من الهند، كما أنه كما يقول اليعقوبى قال بسرية الأعداد وأهميتها، وقال بفكرة تجديد الدين كل مائة عام كما أسلفنا من قبل، ولذلك لم يكن صالحًا لحل المشكلة فى قلوب الغالين، لأنه قد فتح بابا من السرية فى العلم، وهذا الباب مرتع خصيب للغلو والغلاة، كما أنه حصر الإمامة فى كل من يعلم العلم السرى وحده، وينقل الشهرستانى عن أصحاب أبى هاشم عنه قوله: «إن لكل ظاهر باطنا، ولكل شخص روحًا، ولكل تنزيل تأويلاً، ولكل مثال فى العالم حقيقة، والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى، وهو العلم الذى استأثر بن على عليه السلام، ثم ابنه محمد بن الحنفية، وهو أفضى بذلك السر إلى أبى هاشم، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقًا».

فلئن كان هذا القول ظل من الحقيقة عند التأمل العميق فليس العصر عصر العمق الفكرى، والفلسفة الإنسانية، بل هو عصر يتطلب من المصلح العودة إلى البساطة، وإغلاق باب التعمق إغلاقًا تامًا، فما مصيبة العصر آنذاك إلا التعمق والإغلاء، وليس يجوز أن نعالج المشكلة بنفس المشكلة.

من هذا العرض يتبين لنا عبقرية زين العابدين ووعيه الدقيق فى مواجهة المشكلة وفهمها، وإدراك أبعادها، وصحة منهجه الزهدى البعيد عن الخوض فى مشكلة الإمام وشروط الإمام، وكان منهجه الزهدى المتسامح عاملاً من عوامل نجاحه فى طريقه، إذ التف حوله الزهاد والعلماء والعامة، والشيعة فى تحفظ من الخوض فى مسائل الفلسفة التى كان يمقتها، وهذا هو السر فى أن عبد الملك بن مروان كان يحبه ويقدره قدره.

رأس أهل الملامة

من العسير أن ندرك حقيقة العمل، أو حقيقة الهدف من العمل عند أهل الملامة الخلص أهل القدم السابق، والسلوك السوى، والإخلاص العميق، والإيمان الخالص من الشائبة. أما أهل الملامة المتأخرون فإنهم وقعوا فى المنكر وهم يحاولون تخليص أعمالهم من الرياء كما يوحى به قول حمدون القصار، ذلك الملامتى البارز حين يقول: «إذا رأيت سكران فتمايل، لئلا تبتلى بمثل ما ابتلى به». فقد أهمل حمدون شعيرة النهى عن المنكر، وأوهم الناس بسكره، وربما لم يفطن أحد العامة إلى هدفه فعاقر الخمر اعتماداً على مظهر حمدون الذى كان يعد فى كبار الصوفية الواصلين. ولذلك كان من السهل كشف حقيقة العمل وهدفه عند أهل الملامة المتأخرين، ولا سيما أولئك الذين اتخذوا أستارا رقيقة تفضح ما وراءها من دعوى الملامة عند المدعين لها في العصر الحديث.

والملامة عبارة عن العناية بإخلاص العمل لله وحده دون العناية بالظاهر، ومحاولة ستر هذاالإخلاص لله، أو ستر الأعمال العبادية نفسها بما يصرف أنظار الناس عنها.

وقديمًا كان أهل المواجيد الصادقة يسترون مواجيدهم بالفقه والحديث أو غيرها من الحرف والصناعات، أما ستر الأعمال بتقليد السكارى فإنه صار من بعد ذريعة إلى السكر نفسه، ثم دعوى الولاية من خلاله، أو من خلال غيره من الأعمال المكروهة أو المحرمة على ما سنفصله فى نهاية هذا الفصل.

وإذا كنا نعتبر الإمام زين العابدين رأس أهل الملامة فإنما كان ذلك قبل أن تكون الملامة مذهبًا مستقر الأصول والقواعد، فهو على هذا لا يعدو أن يكون معنيًا بإخفاء العمل من جهة، وإخفاء هدفه من جهة أخرى، متخذاً من الظروف التى أحاطت به وسيلة لهذا الخفاء دون اصطناع وسائل أخرى من خارج الذات البشرية، وعلى هذا كان يجب أن يسير الملامتية عبر العصور، ليجنبوا أنفسهم الوقوع فى المحظور كما حدث بالفعل.

أما الوسيلة التى تذرع بها السجاد لإخفاء أعماله القلبية وأهدافها فكانت «البكاء». وكانت ظروفه الإنسانية التى يقرها العرف تحتم عليه إدامة البكاء، ولكن الأمر الذى لا يمكن، أن نوافق عليه هو أن يكون الإمام السجاد أحد البكائين حسب، ولا موهبة له فى

الدين إلا بالبكاء، لأن سيرته تفصح لنا عن كثير من المواهب الروحية النادرة التى سنعرض لها خلال هذا الفصل إن شاء الله.

لقد تحقق لوم الناس له على البكاء باعتباره كان أمرًا لازمًا له، لايفارقه إلا قليلاً، وكان رد الإمام على لائميه يؤكد لهم أن بكاءه ما كان إلا لظروف نفسية معينة أحاطت بحياته، وليس هو بكاء الخوف واليقين الروحى الذى يصدر عادة عن المتفوقين فى مواهب الروح، قال كما يروى أبو نعيم: «لا تلومونى، فإن يعقوب فقد سبطا من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم أنه مات، وقد نظرت إلى أربعة عشر رجلاً من أهل بيتى يقتلون فى غزاة واحدة، أفترون حزنهم يذهب من قلبى؟».

وفى رواية أوردها صاحب روضات الجنات نقلناها عن كتاب «الصلة بين التصوف والتشيع»، أن الحسن البصرى لقى الإمام السجاد ملثما يبكى ويتضرع فى الكعبة، فقال له: يا سلالة النبوة، ما هذه المناجاة والبكاء وأنت فى أهل البيت، وقد قال الله عزوجل: ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. قال: دع يابن أبى الحسن. خلقت الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشيًا، وخلقت النار لمن عصاه ولو كان شريفًا قرشيًا، وقال رسول الله ﷺ: «**أيتونى بأعمالكم لا بأنسابكم**».

فهو كما نرى ينفى الامتياز عن نفسه نفيًا قاطعًا مؤيدا بالدليل، ويضع نفسه فى موضع عامة الناس المطالبين بالعمل والعبادة والطاعة، ولكنه يكتفى بهذا القدر من أصول الملامتية أمام الحسن البصرى الزاهد العالم العارف بمايكنه ابن الحسن من مواهب الروح، فلم يكن رده عليه مساويًا لرده على عامة الناس بأنه إنما يبكى على القتلى من أهله وعشيرته، ولكنها الملامتية الصحيحة فى كلا الوجهين، دون نزاع، تختلف وجوهها وتتعدد طوائفها دون أن تجنح عن الواقع إلى أساليب مصنوعة تثير الغش والخداع بين طوائف المؤمنين.

ولم ينس زين العابدين أن يطلق قولاً حكيما جرى فيما بعد مجرى الأمثال يعلل به بكاءه، وينفى عن نفسه أن يكون سببه إحساسًا روحيًا متفوقًا فيقول: «فقد الأحبة غربة».

وهو قول حق، وسبب وجيه يدعو المصاب به للبكاء ليله ونهاره، وقد يكون هذا السبب عاملاً من العوامل التى أذكت جذوة البكاء فى قلب الإمام السجاد، ولكنه ليس كل شيء فى مواهبه التى تناقلتها الروايات بصورة جعلتها ذات دلالة على التفوق

والإمتياز فى مواهب الروح حتى ولو كان طابع الأسطورة يظلل بعضها بظلاله المعبرة التى تفصح عن أعاجيب أحواله فى هذا الميدان.

كان مرهف الحس والمشاعر ما فى ذلك من شك، وتأثر تأثراً عميقً بليغا بمصارع أهل بيته وعلى رأسهم أبوه العظيم لا يرتاب فى ذلك أحد، ولابد من أن تنتزع تلك الفاجعة الشنعاء دموع عينيه وأحزان قلبه وفيض عواطفه وآلامه، ولكن الذى لا يعقله إنسان أن يكون بكاء الإمام السجاد مدى حياته مدفوعًا بهذا السبب وحده، وهو ربيب الحسين، ورضيع لبان النبوة الطاهرة، والمتشرب لخلاصة الإيمان الصابر الراجع بالخلق كله إلى الله، بل إن العامة أنفسهم لا يكونون على حال البكاء مدى الدهر لفقد الأحبة والأهل والعشيرة أبدا، فليس من السائغ مطلقًا أن ننسب إلى السجاد ما لا يتحقق عند عامة الناس، فقد كان بكاؤه موجهًا نحو ما هو أسمى وأدل على التفوق من هذا السبب الظاهر.

لقد استغل هذا السبب الظاهر ليغطى به السبب الحقيقى لبكائه، وليعلم الناس من بعده وجوب إخفاء العمل لله بأسباب من طبيعة حياة العابد لا بأسباب مصنوعة تنم فى كثير من الأحوال عن رياء من حيث يظن العابد أن يتجنب الرياء. وفى نفس هذا السلوك يكمن التفوق والبروز فى مواهب الروح، وسبحاتها نحو الغيب الأقدس.

لقد أعلن الإمام فيما روينا من أقواله قبلا أنه لا يمتاز عن غيره من سائر الناس، وليس فيه ولا فى غيره من أئمة آل البيت ما يرميهم به أهل العراق من خروج عن مراتب الإنسان، ولكنه كان يبطن فورانًا هائلاً من مواهب الروح كتمه عن الناس، وعلل مظاهره من البكاء والعجيب بما روينا عنه من تعليلات، ولكن شدة إحساسه بالغيب، ويقينه بغير المنظور وكأنه مشهود منظور كان يأبى إلا أن يكشف عن دخيلة نفس الإمام، وحقيقة ما يتبلج فى صدره من مواهب الروح، وأسباب البكاء الحقيقية، ولم يكن ظهور تلك الدلائل التى تشير إلى التفوق مقصورا للإمام، فهناك إجماع على خلائق من خلائقه كان يحكم كتمانها إحكامًا عجيبًا بحيث لم تظهر حقيقة أخلاق ـبوية إلا بعد موته، وكان ذلك منه إمعانًا فى إحكام أخلاق أهل الملامة، وإحكام طرائقها.

فمن غرائب ذلك أنه كان مشهورا بالبخل، لأنه لم يكن يتصدق مطلقًا أمام الناس ولا فى مواجهة السائل، وكان سعيداً باشتهاره بالبخل ولوم اللائمين عليه، ولكنه لما مات انقطع عن مائة أهل بيت بالمدينة ما كانوا يجدونه ملقى فى دهاليز بيوتهم من عطاء

جزيل، فكان فى ذلك دلالة على انه كان كما تروى المراجع يذهب مستخفيًا فى جنح الظلام، ويحمل على ظهره جرب الطعام، ؟؟ فى دهاليز من كانوا يقصدونه ويمنعهم عطاءه، ويروى أبو نعيم عن جرير أن الإمام حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجُرُب إلى المساكين». كما يروى القرمانى فى أخبار الدول، والذهبى فى التذكرة أنه كان يتصدق سراً ويقول: «صدقة السر تطفىء غضب الرب».

لقد نجح الإمام فى كتمان كرمه النبوى الذى ورثه عن جده الأعلى صلوات الله عليه، وصبر على شهرته بالبخل فى سبيل نجاح العمل السرى الواجب شرعًا، ولكن الله أبى إلا أن يدع العلامة الواضحة التى تدل على كرمه بعد موته، والتى تعتبر من صنيع الإمام فى حياته مثلاً أعلى للعمل الإسلامى الذى يحفظ كرامة المؤمن وماء وجهه، ويؤكد حكمة السرية فى الصدقة لهذا السبب ولغيره من الأسباب الاجتماعية الأخرى.

هذا أمر يمكن كتمانه حقًا على تفوق وعبقرية نادرة، وقوة خارقة على الصبر فى مواجهة الاتهام بالبخل، فهل يعجز هذا الصبر الهائل عن التسلى عن فقد الأهل والعشيرة وهو أمر أهون من رميه بخلق ممقوت كالبخل، بل إن فقد الأهل يزيده شرفًا وعزاً على مدى العصور، وسموا فوق هامة التاريخ؟

ولكن مواهب الروح لابد ان تتفجر أحيانًا فتكشف عن دخيلة الإمام وحقيقة مكانه بين أهل الإيمان النبوى الموروث وأصحاب الحاسة الوحية البارعة الصادقة، وغير ذلك من المواهب ومواريث العمل الإيمانى الذى كان يخفيه بالبكاء، ويتستر به من مظنة الإدلال بالعمل، أو الاشتهار به، أو رياء الخلق فيه. وكان انكشاف تلك الحقيقة يتخذ أهدافًا مختلفة كلها تخدم قضية الإيمان الصادق، وتدعم الأساس الهام فى العمل الإسلامى وهو توجيه الإرادة بالعمل نحو الله وحده لا شريك له، لا لهدف آخر سواه.

فهو يقول فى رواية أبى نعيم مبتهلاً إلى الله فى لحظة من لحظات اتهام النفس بالتقصير رغم بلوغها الغاية فى الإجادة: «**اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لوائح العيون علانيتى، وتقبح فى خفيات العيون سريرتى، اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إلىّ، فإذا عدتُ فعُدْ علىّ**».

فهو يخشى أن تكون علانيته أبلغ من سريرته فى الإحساس بالإخلاص، وفى إخلاص الإرادة لله وحده، وفى البأس من الخلق كلهم والثقة بالله وحده، يخشى ذلك رغم جهوده التى كان يبذلها فى الإسرار بأعماله، وإحكام الستار حولها ان ينفذ منها شىء يعلمه

عنه الناس، وهو فى الوقت نفسه يلقن أهل الملامة درسًا هامًا فى سلوكهم هو: وجوب الدوام على إتهام النفس بالتقصير.

والذى ندركه من حقيقة سلوك الإمام انه كان حريصًا كل الحرص على أن تكون سريرته أغنى بالإخلاص من ظاهره، وأغنى بالإرادة الصادقة من بوادى أموره، وكان يعد الخلل فى هذا التوازن بين السريرة والعلانية، أو عدم إثراء السريرة عن العلانية بالنية الصادقة ذنبًا يسأل الله تعالى أن يستره بغفرانه، وفوق ذلك كله فإنه عد نفسه أحد المذنبين فى سابق الحال، ويرجو أن يواليه الله تعالى بالغفران.

وقبل أن ننتقل إلى هدف آخر من أهداف الإمام التربوية فى فقه الإيمان يحسن أن نعرض بالتحليل لعنصر الذنب الذى ورد فى هذا الدعاء.

ما هو الذنب الذى اقترفه الإمام، والذى يشير إلى احتمال العودة إليه راجيًا موالاة الغفران؟

لا نجد فى سيرة الإمام مطلقًا ما يشير إلى مظنة الذنب إلا أحد أمرين:

أولهما: إستحالة الوفاء بحق الله فى التعبير عن العبودية الحقة قولا وعملاً وفاء كاملاً، بحيث لا يؤخذ عن العابد فيه أى مأخذ من قريب ولا من بعيد، فالنعم الإلهية من الوفرة والثراء بحيث لا يفى بها شكر شاكر، ومسألة الشكر فى ذاتها لا تنتهى إلى نهاية، فالشكر تتبعه زيادة من الله تعالى فى الإنعام، ولذلك قالوا: إن الشكر يحتاج إلى شكر، وهكذا تنهار أقوى الهمم عن الوفاء بحق الشكر ومولاته تبعًا لتوالى النعم، وهذه إحدى وجوه العجز البشرى العام، وهذا العجز إن كان هينًا فى نظر العامة بالنسبة للإمام السجاد لأنه اتقى الله ما استطاع، فإن الإمام يعده ذنبًا وجب الاستغفار منه.

وثانيهما: أن الحال كان يقتضى تغيير المنكر السائد فى الدولة من أعلاها إلى أدناها، وكان المسئول الأول فى العصر هو الإمام السجاد باعتباره البقية الباقية من سلالة النبى ﷺ صاحب الدعوة، والباذل نفسه فى سبيل تحقيقها على وجه الأرض قولاً وعملاً. ولكن مصائرين الجاهرين بالنهي الراغبين فى تغيير المنكر السائد كانت معروفة واضحة لدى الجميع، بالإضافة إلى تخاذل الناس عن جدية العمل، واشتهارهم بنقض العهود، وفى إلقاء الإمام السجاد بنفسه إلى تلك التهلكة المؤكدة خطر على الإسلام ذاته، إذ لا يوجد من بعده من ينهض بالناس على طريق القدوة وعلى طريق تربية جيل فاهم واع لحقيقة العمل الإسلامى الصحيح. ومن ثم كان وجوده لازمًا لبيان تلك الأسس للناس

فى نطاق مدرسته الزهدية. فاعتبر سكونه هذا ذنبًا يجب الاستغفار منه، وهو فى الواقع ضرورة أملتها مصلحة الإسلام والغيرة على أسسه أن تضيع من جهة، كما أملتها الأوامر الإلهية الصريحة بعدم إعانة الإنسان على نفسه إذا تحقق الهلاك.

ومن أهدافه التربوية التى لم يستطع كتمها وفاء بمذهب أهل الملامة الحق، والتى تعتبر ذات دلالة بالغة على القيمة الحقيقية لتفوق الإمام الروحى ما يبدو من قوله:

« إن قومًا عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار ».

فهو هنا لا يتحدث عن نفسه، وإنما يتحدث عن مسالك الناس فى العبادة حديث الواعى الفاهم لهدف الناس من العبادة بحيث لا يخرج عابد عما حدده الإمام من أقسام ثلاثة. ولكن نلمح من حديث عن الناس إيمانه العميق بالحب الإلهى الذى ظهر مبكرًا فى صورة منظمة على يديه. فهذا الحب هو الذى تبدولوا معه منه عبادة الأحرار البريئة عن الخوف من العذاب، والرغبة فى الثواب، فهى عبادة قوامها الحب وحده إذا لم يحدوها خوف ولا رجاء.

ورغم أن عبادة العبيد وعبادة التجار مشروعة، ولا ضير على المسلم من عبادة ربه خوفًا منه أو طمعًا فيما عنده فإن الإمام زين العابدين قد هدف من قوله هذا إلى رفع همم المسلمين إلى أرقى مستويات الوعى الروحى بالترغيب فى الحرية الكامنة فى الشكر، ولا يستبعد أن يكون الإمام قد هدف كذلك إلى صد الناس عن الخوف والرغبة اللذان دان بهما الناس لأولى الأمر حتى فسدت أعمالهم، واختلت إراداتهم على الصورة المزرية التى عرفت عن عامة أهل ذلك العصر.

ومن هذا النص نفهم كذلك أن البخل الذى اشتهر به الإمام لا حقيقة له إلا فى معرض التستر والإسرار بالعمل، والرغبة فى شيوع العكس على طريقة أهل الملامة. وذلك لأن الشكر الذى اعتبره الإسلام أصلاً فى المعاملة بين الله وعباده، والذى دان به الإمام السجاد يقوم أساسًا على: الإقرار باللسان، وعدم استعمال النعم فيما كره الله، ووجوب العود بها على أهل العدم والمسكنة. وأعلى الشكر ما عاد به الشاكر على أهل المسكنة سرًا، وأعلى منه أن يعود الشاكر عليهم من حيث لا يعلمون من الذى أعطاهم، وذلك كان مسلك الإمام زين العابدين رضوان الله عليه.

ولكن الأمر الذى لم يستطع كتمه حقًا، ولا طاقة لإنسان على كتمه فهو ظهور آثار

الانفعالات الوجدانية على ظاهر ملامحه حينما كان يقف بين يدى الله تعالى.

فقد كانت تظهر عليه رعدة، ويعلو وجهه شحوب، وينتفض انتفاضة ظاهرة سنعرض لها بالتفصيل مع غيرهامن مظاهر وعيه الروحى فى مكانها إن شاء الله، ولكن الذى يهمنا هنا أنه أعلن أن هذه الظواهر البدنية ما هى إلارد فعل لمايحسه من هيبة الله تعالى حين يستعد للوقوف بين يديه للمناجاة.

فكيف يستقيم هذا الإعلان مع مبدأ الإسرار بالعمل الذى دان به عن طريقة أهل الملامة الأصلاء الأقدمين؟

ونقول: إن ستر الأعمال، أو «الملامتية» إن صح أن نطلقها على سلوك الإمام السجاد فى أصل وضعها لا تحظر إعلان الأصول العملية للقدوة والتربية لا سيما وقد كانت هيبة الله توشك أن تندثر من قلوب أهل العصر فى أيام زين العابدين.

وهل هناك من خير فى ستر مظاهر الهيبة المتسلطة على القلب من جلال الله بين أقوام تسلط عليهم الطمع وسادهم حب المال، وعدوا بسيوفهم وألسنتهم على آل بيت النبوة؟ بل إن الخير كله فى إظهار ما كان يصح إخفاؤه لا سيما من إمام جليل كزين العابدين يأمن الرياء ويأمن علل الأعمال الأخرى بحكم نشأته ودربته على العمل العبادى الصحيح منذ نعومة أظفاره.

وهكذا نلمس بوضوح أصول «الملامتية» فى سلوك الإمام السجاد، ولكنها عنده مذهب لا يحيد به عن الطريق، فهو يتلمس أسبابًا من الظروف المحيطة بحياته يستر بها أعماله، ويخفى بها حقيقة مشاعره العبادية، ويوجه أنظار الناس نحو تلك الأسباب طلبًا للكف عن الثناء عليه وتمييزه بين الناس بالشهرة، وهو ينآى عن كل سبب مصنوع يستر به العمل أو هدف العمل، فالصناعة طريق شائك تخبط فى ظلماته من جاء بعده ممن أسسوا الملامتية مذهبا منظمًا له قواعده، شأنهم فى ذلك شأن كل من حاول برأيه تطوير دين أو ابتداع ما يسميه بالبدع الحسنة، فذلك نهايته المروق والتخبط فى الظلمات.

والآن نعرض لمذهب أهل الملامة فى إيجاز نتبين منه كيف انحرفوا به عن الطريق بعد السجاد.

وأقرب النصوص التى توحى بالملامة إلي عصر الإمام زين العابدين: أن سفيان الثورى خلا مع الفضيل بن عياض فبكيا، فقال الثورى: إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا خير

مجلس جلسناه. فقال الفضيل: ترجو، ولكنى أخاف أن يكون شؤما علينا. وعلل الشؤم بأنه تزين كل منهما للآخر بأحسن ما عنده من القول، فعبد كل منهما الآخر من حيث لا يرى. وأقر الثورى فضيلاً على رأيه وقال: «أحييتنى أحياك الله».

والفضيل نفسه هو الذى وقف له على باب المسجد جماعة بعض الزهاد من الشبان على باب المسجد، وعليهم الصوف بالكوفة، فخرج عليهم فلما رآهم قال: «وددت أنى لم أركم ولم ترونى، أترونني سلمت منكم أن أكون لكم ترسا حيث تراءيتم لى وتراءيت لكم؟ لأن أحلف عشرا أنى مراء وخادع أحب إلى من أن أحلف واحدة أنى لست كذلك».

فهنا ملامح للملامة قويمة المسلك، تنزع نحو البراءة من الدعوى، ولكنها لا تتخذ من الظروف المحيطة بالنفس ستاراً حول المواهب الروحية وغيرها من ألوان التفوق الدينى، بل تنزع نحو إتهام النفس علانية على الصورة التى نراها عن الفضيل بن عياض.

ومن قبل الفضيل - وهو أقرب إلى عصر زين العابدين كان منصور بن المعتمر السليمى الزاهد الكوفى المتوفى عام ١٣٢، وكان قد صام أربعين سنة، صام نهارها، وقام ليلها، وكان يبكى الليل فتقول له أمه: يابنى أقتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت نفسى. فإذا أصبح كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرق شفتيه، وخرج إلى الناس.

وهذا نموذج طبيعى للملامتية التى تستر الأعمال بما هو مباح من الأعمال والزينة.

فالملامة على هذا: إظهار أدون الأحوال العبادية وكتم معاليها، فليومهم الخلق على ظواهرهم، ويلومون أنفسهم على ما يعرفون من حقائقها.

ويفرق الدكتور أبو العلا عفيفى بين الصوفى والملامتى فى كتابه «الملامتية والصوفية وأهل الفتوة» فيقول: إن الفرق بينهما: أن الصوفى ينم ظاهره عن باطنه، وتظهر عليه أنوار أسراره فى أقواله وأفعاله، لذلك لا يتحرج الصوفى عن إظهار الدعاوى كالحلاج وغيره. أما الملامتى فحفيظ على سر الله، يكتم فى نفسه ما بينه وبين ربه على عدم التحقق من التقصير.

وبعد زمان طويل جاء حمدون القصار المتوفى سنة ٢٧١ من الهجرة، وقرر لطلاب طريقاً إلى السترمنحرفا فقال: «إذا رأيت سكران فتمايل لئلا تبغى عليه فتبتلى بمثل ذلك». ومنه ترى تحول الهدف الأصلى للملامة إلى هدف آخر هو أتقاء الاعتراض على العصاة، وقد مر بنا نقد هذا القول أول هذا الفصل.

ومن مدرسة حمد والقصار انتشر مذهب الملامة كما يقول السلمى الذى وصفه بأنه شيخ أهل الملامة.

ومن الأمثلة التى نراها قد انحرفت بالملامة عن أصولها الأولى التى لمسناها عند الإمام زين العابدين، وفتحت أبواب الانحراف للصوفية تحت ستار الملامة ما روى عن أبى حفص الحداد من تأديبه مريده أبا عثمان الحيرى، إذا أودع تاجر من تجار نيسابور جارية عند الحيرى، فوقع نظره عليها يوما فعشقها وشغف بها، فكتب إلى شيخه الحداد بالحال، فأمره بالسفر سعيًا إلى صحبة شيخ يسمى يوسف بالرى، فلما وصل إلى الرى، فلما وصل إلى الرى وسأل الناس عن منزل الشيخ يوسف أكثر الناس فى ملامته وقالوا: كيف يسأل تقى مثلك عن بيت شقى فاسق، فرجع إلى نيسابور وقص على شيخه القصة، فأمره بالعودة إلى الرى وملاقاة الشيخ يوسف. فلم يبال بذم الناس له، وازدرائهم به، فقيل له: إنه فى محلة الخمارة، فأتى إليه وسلم عليه فرد عليه السلام وعظمه، وكان إلى جانبه صبى بارع الجمال، وإلى جانبه الآخر زجاجة مملوءة من شىء كأنه الخمر بعينها.

فقال له الشيخ أبو عثمان: ما هذا المنزل فى هذه المحلة؟ فقال: إن ظالما اشترى بيوت أصحابنا وصيرها خمارة، لوم يحتج إلى شراء دارى. فقال: وما هذا الغلام؟ وما هذه الخمر؟ فقال: أما الغلام فولدى من صلبى، وأما الزجاجة فخل. فقال: ولم توقع نفسك فى مقام التهمة بين الناس؟ فقال: لئلا يعتقدوا أنى ثقة أمن ويستودعونى جوابهم فأبتلى بجهن. فبكى أبو عثمان بكاء شديداً وعلم قصد شيخه.

من هذه النقطة بدأ انطلاق جديد نحو اختلاق أسباب جديدة للتستر هى فى ذاتها محرمة أو مكروهة، كما رأينا فى القصة السابقة من اصطناع مجالسة المرد، واصطناع شبيه بالخمر، وقد تطورت تلك الأسباب فى نطاق الملامتية فأصبح الشاب الأمرد أجنبياً، وأصبح الخل خمراً حقيقيًا، بل إن الأمر قد تطور فيما بعد إلى فضائح دعت أمثال جولد تسيهر إلى أن يقول فى كتابه «العقيدة والشريعة»: إنهم كانوا «يهتمون بكل ما يثير السخرية والفضيحة بمسلكهم، وما يجر عليهم مذمة الناس لهم، ويرتكبون من الأعمال ما يعد مخجلاً للدرجة القصوى يبغون بذلك تطبيق مبدئهم وهو: ازدراء الاحتقار».

وقد تطورت الملامتية بحكم هذا الانطلاق إلى طريقة أطلق عليها اسم «القلندرية»، ومن شيوخهم قطب الدين حيدر (ت ٦١٨) ويقول المقريزى: إنه أباح لتلاميذه تناول

الحشيش، وإهمال الواجبات الشرعية . ويحاول السهروردى التخفيف من الشعور بانحرافهم فيقول : إنهم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم، فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض. . . وربما اقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يبالوا بحقائق العزيمة » .

والنظر الدقيق فى سلوك أكثر متصوفة عصرنا الحاضر يعطينا حقيقة هامة هى : أنهم يتمسحون بمذهب أهل الملامة ويفسقون عن دين الله بحجة ستر الأعمال والأحوال .

حقيقة إن فيهم أقوامًا فضلاء أخلصوا دينهم وأعمالهم لله، ولكن بينهم كثيرًا من الأدعياء، ومن هؤلاء الأدعياء جهلاء يختلط رجالهم بنسائهم، بل وقد يجمعهم فراش واحد، ومنهم من مسخ هيئته وملبسه حتى يصير مثيرًا للضحك والسخرية . ومنهم عالمون بأحوال الطريق دارسون لطقوسه، سالكون فى ظاهر الأمر لدراجاته، ولكنهم رغم ما يسحر مجالسهم من سماع أحسن القول فى مقامات الطريق فاقدون للأمانة، يتخذون علمهم وسيلة لكسب الدنيا تحت ستار ثقة الناس فيهم، وباسم أهل الملامة .

من هنا تأتى أهمية الإمام السجاد فى تخطيطه الواضح الذى لا يحتمل التطوير ولا التجديد لأصول الملامة ووسائلها الشرعية التى يتحتم أن تؤخذ بحذر ودقة وفحص بحيث لايخرج الملامتى عن واقع بيئته ولا واقع شريعته فى شىء .

فإذا كانت « الملامة » ضرورية لاحتفاظ الإنسان المؤمن الصادق الإرادة بسرية أعماله، وسرية هدفها الموجه نحو الله تعالى وحده، فإن الوسائل الموصلة إليها لابد أن تكون من واقع حياة الإنسان العابد الراغب فيها كما كان عليه الإمام السجاد، وإما أن تكون وسائل شرعية بحتة كالفقه ورواية الحديث كما كان عليه المخلصون من أئمة السلف من أمثال الثورى ومدرسته، وإما أن تكون عملاً اجتماعيًا يفصح عن حقيقة الإخلاص، وحقيقة الإرادة كما كان يفعل إبراهيم بن أدهم، إذ كان يعمل حصادًا، وحارسا للبساتين، ثم يعود بما زاد عن الضرورة من أجره على إخوانه وعلى أهل العدم والمسكنة من المسلمين .

أما أن يصطنع الملامتى أسبابًا أخرى تكون مظنة للفسوق والمعصية فهذا هو الانحراف بعينه .

فالعقل والمنطق لا يقر الوصول إلى الطاعة بمايشبه المعصية، أو بما يشجع الجهلاء على المعصية، والأصول التى سار عليها السلف لا تؤيد تلك الأعمال البلهاء التى تساعد على التفلت من قيود الشريعة السمحة .

على أن سلوك أهل الملامة فى ذاته لا تمس الحاجة إلى اصطناعه إن لم يكن من طبيعة حياة الإنسان سبب ساتر للعمل، أو كان فى استعداد السالك ميل إلى درس العلم والفقه مثلاً. فهو مذهب كما رأينا كان سريع الانحراف بأهله فى عصر قريب من عصر النبوة، فما بالنا فى عصرنا الحاضر وقد بعد العهد بعصر النبوة، وانحلت الهمم عن درس سير السلف؟

لقد كان السلف يصطنعون الملامة مذهبًا لستر أرفع الأحاسيس وأرضاها لله تعالى، فأصبح المحدثون يصطنعونها لستر أقبح الكبائر، وأدون الأخلاق واسخطها لله تحت ستار دعوى التصوف، والتشدق الممقوت بالمنازل والأحوال.

ولقد مضى الإمام السجاد فى بيان أهداف الملامة بالسلوك العملى والقدوة الحسنة إلى حد الإشارة إلى حال من أحواله جاء عفواً ودون عمد منه، بل ساقه القدر إليه ليكون فارقًا بين ملامتية القرن الأول وملامتية القرن العشرين ومن قبل العشرين.

روى الذهبى فى تذكرة الحفاظ أنه سقط ابن للإمام السجاد فى بئر ففزع أهل المدينة كذلك حتى أخرجوه فكان قائمًا يصلى فى المحراب فمازال فى مكانه. فقيل له فى ذلك فقال: ما شعرت، لأنى كنت أناجى ربى.

وقد يشك بعض المحدثين فى مثل هذه الرواية، ونقول: إنه شعور موروث عن النبى ﷺ، فقد روت عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ كان يكون فى أهل بيته، فإذا سمع الأذان مضى وكان لم يعرفنا. كما تواترت الروايات عن سجود النبى ﷺ وقتًا طويلاً غير مألوف، كما جاء عنه ﷺ أن له وقتًا لا يسعه فيه غير ربه.

فتلك فترات من حياة الأطهار تنقطع الصلة تمامًا بينهم وبين العالم المحيط بهم فلا يشعرون إلا بسلطان الهيبة الإلهية يسيطر على كل جوانبهم، وعلى جميع مداركهم فلا يحسون بشيء إلا بما هم فيه من جلال المناجاة. على أن الروايات تقول: إن عروة بن الزبير مرض وقرر الطبيب بتر عضو من أعضائه فاختار الصلاة عملاً يقوم الطبيب فيه بمهمة أثناء تأديته لها، وقطع الطبيب ما أراد ولم يشعر عروة.

فإن صح أو لم يصح هذا الخبر فهو دلالة واضحة على أن فى السلف من كان يغيب عن كل شيء وهو يناجى ربه، وكفانا هذه الحقيقة حجة على صدق تلك الموهبة ووجودها لدى أهل بيت النبوة، ولكنا نشك مع الشاركين فى عمومها وانسحابها على هذا العصر الذى نعيش فيه إلا فى حالات فردية لا تتكرر إلا بين أجيال وأجيال.

ونعود إلى بحثنا فنرى أن الإمام السجاد كان يصطنع الملامة، فينسب بكاءه إلى فقد الأحبة ليخفى أمثال تلك المشاعر التى تلونه بالجلال، وتمكنه من مقامه فيبكى، وكفاه أن يكون بكاء من البكائين، ولم يشتهر فى عصره بأنه من أهل المقامات العلية فى عبادته.

ولا تتردد فى القول بأنه إنما أفصح عن دخيلة أمره فى هذه الواقعة تعليما لمن حوله، وتنشيطًا لهممهم التى كانت تشدها الأرض إلى ترابها، وتعليما للمسلمين على مدى العصور فى هذا الصدد، وقد شاءت الأقدار أن تكون تلك الواقعة كذلك حقًا يدفع باطل المدعين فى عصرنا الحاضر، وميزانًا يوزن به مدعى الملامة الفاسق، والمتحقق بها على هدى من ربه، فهو الميزان الذى لا يخطىء.

والحق أننا لا نجد بين المدعين فى عصرنا لمذهب أهل الملامة من يفتقد أتفه شىء مما يملك أثناء غيبته المصنوعة عن الخلق دون أن يتحول على الفور إلى وحش كاسر فى مواجهة منسلبه هذا الشىء التافه. بل إنه قد يتستر بالملامة من كبائر سيطرت على كيانه، ونفاقًا للناس ليحسنوا الظن به، ووسيلة لاقتناص أموالهم وأعراضهم تحت هذا الستار.

ومن هنا تأتى أهمية سلوك الإمام السجاد فى تحقيق مذهب أهل الملامة وتحقيق وسائله الشرعية، والتفرقة الصحيحة بين أهل الملامة الحقيقيين، وبين «قلندرية» العصر من أهل الفسق والفجور والنفاق.

مواهب روحية

قلنا فى الفصل السابق: إن الإمام السجاد كان متفوقًا فى مواهب الروح بحكم وراثته، وبما حباه الله تعالى به من عقل راجح، وتوفيق إلى طريقه حتى صار أفضل آل البيت، وأفضل هاشمى على الإطلاق.

ومواهب الروح تختلف عن المواهب المألوفة لدى عامة المفكرين والأذكياء، لأنها ترتاد الآفاق المجهولة للعقل والحس، وترتد من رحلاتها فى مجاهلها إلى عالم الكون المنظور تسلك بصاحبها فيه سلوكًا يبدو فى أنظار الناس شاقًا على النفس، لا يقوى عليه جمهورهم، ولكنه فى الحقيقة مصدر سعادة ورضى لسالكه لايدركهما إلا مجرب.

ومواهب الروح تنبع أولاً من معنى الإسلام، تبدأ منه، وتنتهى إليه فى ظاهر الأمر وحقيقته على السواء.

فالبداية من معنى الإسلام فى ظاهر الأمر بالإذعان والاستسلام المطلق لكل ما يرد من الغيب من أمر إلهى، وكل ما علم عن رسوله ﷺ من سنن وتفسيرات لأوامر الله تعالى، إيمانا بها وتصديقا لها، وتنفيذاً عمليًا مقترنًا بالاقتناع بها وحبها دون تدخل من جانب النفس أو العقل بالاعتراض أو بالتفضيل لمسلك دون آخر.

والبداية من معنى الإسلام فى حقيقة الأمر نعنى بها الاقتناع بجدوى دستور الغيب فى ترقية النفس، وصفاء القلب، والمسارعة إلى العمل للاستزادة من تلك الآثار التى تنمو بموالاة العمل، والحرص عليه والتسابق إليه، دون شعور بالكلفة ولا المشقة المصاحبة له فى بعض الأحوال.

تلك هى بداية الوعى الروحى من معنى الإسلام، وهى كما نرى ذات وجهين: عمل فى استسلام دون اعتراض، وشعور وزون لروح العمل يكون معه الحرص عليه وحبه واليقين بجدواه على الإنسان.

أما نهاية الوعى الروحى ومواهبه فهى كذلك لا تخرج عن معنى الإسلام فى الظاهر والحقيقة كبدايته تمامًا مع اختلاف فى الذوق والإحساس.

فهى فى ظاهر الإسلام: استسلام كامل لمراد الله، ورضى بما يجرى من قدره، وشعور

بالسعادة من هذا الذى يجرى من القدر سواء أكان مما يعده الناس نعمة، أو ممايسمونه نقمة، فالكل سواء، لأن الشعور قد تسامى عن عالم الأسماء، وثبت عند منبعها فلا يرى فيه إلا حكمة بليغة تصدر على صورة بلاء فى إطار نعمة، أو على صورة نعمة فى إطار نقمة، ومادام نبع القدر خيراً كله، فكل ما يجرى منه خير كله.

والنهاية فى حقيقة الإسلام هى: إلقاء الإنسان نفسه وكل مداركه، واطراحها جانباً، والتعرض لنفحات الله تعالى فى أيام الدهر، وإصغاء السمع بالقلب إلى الصمت الرهيب فى عالم الغيب، وفى هذا الصمت تتوالى التجليات الإلهية فى مراتب تنزلها إلى عالم المشهود جلالا تصطلم له القلوب، وتغنى عنده المشاعر والمدارك، وينبع فجأة شعور واع بالعظمة لا يدركه أحد غير أصحاب المواهب الروحية.

ولتقريب وعى الروح إلى العقول نتصور إنساناً يقف أمام محكمة عليا يمكن أن تصدر حكماً بإعدامه أو بحبسه الإنفرادى مدى الحياة، فهل تجد لدى هذا الإنسان بقية من شعور يوجهها نحو نزهة خلوية مثلاً، أو سهرة صاخبة على غرار ما يفعل الطليق من القيد خارج قاعة المحكمة؟

وهل تجد شعور هذا الذى يقف أمام المحكمة مساوياً لشعور الذى صدر عليه حكم الإعدام بالفعل؟

وهل تجد شعور هذا المحكوم عليه بالإعدام مساوياً لنفس شعوره وهو يساق إلى ساحة التنفيذ؟

تلك مراحل ثلاث تختلف فى درجات التخلى عن المشاعر البشرية حتى تصل إلى حال النهاية التى يندثر فيها الشعور بالبشرية ونوازعها تماماً ولا تبقى إلا معاينة المجهول، والتردد فيه بين الخوف والرجاء، لا يجد مستقراً على أحد الوجهين، لا لشىء إلا لأن مصدره مجهول مع أنه معلوم بالقلب، ومن هنا تكون الحيرة بين الخوف والرجاء مساوية للحيرة بين الجمال والجلال المعلومين من تجليات الغيب الأقدس.

وكان الإمام زين العابدين على درجة عالية من التفوق فى مواهب الروح أثرت فيمن حوله وفيمن بعده، ولازالت تؤثر إلى الآن فى الملايين من محبيه وهم فى غالب الحال على جهل كامل بسيرته، ويبدو ذلك من استعراض عام لمعالم زين العابدين فى قلوب المسلمين جاهلهم وعالمهم، فإنك لاتجد إلا إكبارا وإجلالا ووقوفاً عند ذكراه فى على مدى أثر الروح اليقظ الواعى فى الناس عبر العصور.

أما دراويش الإمام القابعون حول مسجده فى القاهرة فهم دلالة - مع جهلهم - على مدى ما بلغ الإمام من مواهب الروح والتمكن فى أحوال العبادة ومقاماتها، ولا نقول: إنهم علماء عارفون بمدى تفوق الإمام الروحى، بل نقول: إن ما تواتر من أخبار تفوقه قد تناقله المولعون بسيرته حتى وصل إلى هؤلاء المرتزقة مشوشًا مهزوزًا، ولكنه على هذا التشوش دلالة تشبه تمامًا دلالة أقوال التراجمة الشعبيين على قيمة الآثار وتاريخها حينما يواجهونك متحدثين عنها فى منطقة الأهرام مثلاً. وسنحاول التدرج من تقييم كبار العلماء له فى مواهب الروح، إلى استنباط بعضها من وقائع حياته، إلى تقييم العامة لمواهبه حتى ندرك المدى البعيد الذى أثرت به مجتمعات الإسلام من تأثير الإمام فيها.

فإجماع علماء العصر ونقاد الرجال فيه على أنه أفضل بنى هاشم على الإطلاق فى زمانه.

قال يحيى بن سعيد: سمعت على بن الحسين وهو أفضل هاشمى أدركته يقول: أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى بغضتمونا إلى الناس.

وقال سعيد بن المسيب، وزين بن أسلم، ومالك، وأبو حازم: «لم يكن فى أهل البيت مثله».

وكان الزهرى يقول إذا ذكر على بن الحسين: «هو أقصد أهل بيته وأحسنهم طاعة».

وكان هو وأبو حازم يقولان: «لم نرى هاشميًا قط أفضل من على بن الحسين».

وقال الزهرى أيضًا: «كانت أكثر مجالستى مع على بن الحسين، وما رأيت أفقه منه، وكان قليل الحديث، وكان أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة».

وقال رجل السعيد بن المسيب: ما رأيت أورع من فلان. فقال سعيد: هل رأيت على بن الحسين؟ قال: لا. قال: مارأيت أورع منه.

تلك بعض شهادات كبار العلماء وأشدهم تحفظًا وانقدهم للرجال فى الإمام السجاد، وكلها تجمع على أنه أفضل أهل بيته، وأهل بيته أفضل الناس على الإطلاق، كما تجمع على تفوقه فى الورع والفقه والطاعة.

والورع - وهو من واهب الروح - يعنى ترك جميع الشبهات التى لا يقطع الفقه بحلها ولا بحرمتها، والعدول عنها إلى الحلال الخالص الذى لا شبه فيه. ولئن كان العامة من العلماء لم يقطعوا بعصيان من تناول الشبهة إذا غلب عليها الحل، فإن الموهوبين

روحيًا لا يتناولونها إيثار المرضاة الله، وخوفًا من الذلل فى جانبه تعالى، وحرصًا على طهارة الجسد اللازمة لقبول الأعمال والإفادة منها.

كان الإمام فى مكانه من آل بيت رسول الله ﷺ يستطيع أن يسخر المجتمع لقضاء حاجاته، وكان يمكنه أن يعيش حياة رغدة لو أنه قبل ما يرجو الناس قبوله من صلات باعتباره من آل البيت النبوى، ولكنه لم يفعل تورعًا عن شبهة الحرام الكامنة فى استغلال الجاه النبوى في إحراز وسائل الانتفاع.

ويقول جويرية بن أسماء فى رواية ابن كثير فى البداية والنهاية: «ما أكل على بن الحسين بقرابته من رسول ﷺ وسلم درهمًا قط».

والإمام يعتبر الورع نهاية الزهد حين يقول: «أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع». ويتدرج فى التعريف بمقامات السلوك من الورع فيقول: «وأعلى درجة اليقين». فالذى يبلغ نهاية الورع يتحرز من أشياء قد لا يتحرز منها الكثيرون من فضلاء أهل الدين، وذلك كالتحرز من الميراث الشرعى إذا وجدت فيه شبهة، والتحرز من أخذ سهام الغزو فى سبيل الله إيثاراً لإخلاص العمل لله وحده. ولايصل إلى هذه الدرجة إلاصاحب يقين يعاين غير المنظور وكأنه شهود من أمر الثواب والعقاب والهيبة لله وعظيم أمره.

ثم يقول الإمام: «وأعلى درجة اليقين أدنى درجة اليقين أدنى درجة الرضى»، لأن الشهود إذا قوى وشمل غير المنظور كله. ودق العلم به فلابد أن يدفع الإنسان إلى الرضا بكل ما يجرى من القدر، واعتباره خيرا من حيث تعجز البشرية عن التمييز بين الخير والشر.

وينتهى الإمام فى بيان مقامات السلوك قبل أن يبرز الصوفية إلى الوجود فيقول مؤكداً إلا وجوب البراءة من الحول والقوة والناس وكل ما فى اليد وما يتيحه الجهد من قضاء الحاجات المصالح، ويؤكد أن هذا السلوك يرفع العوائق من الطريق بين العبد وربه، ويؤهله لولاية الله تعالى لامره، والاستجابة له فى كل اموره، وذلك حين يقول: «رأيت الخير كله قد اجتمع فى قطع الطمع ما فى أيدى الناس، ومن لم يرج الناس فى شيء، ورد أمن إلى الله عز وجل فى كل أموره استجاب الله له فى كل شيء».

بقى أن نقول: «إن الإمام قد بلغ فى اليقين والرضى مبلغاً يعتبر بحق من أسمى وأعلى ما وصل إليه بشر فى هذا المضمار.

أما الرضا فيتجلى فى مقابلته للسيئة بالحسنة على صور غير مألوفة للكثير من الناس

ستتحدث عنها إن شاء الله فى أثناء الحديث عن أخلاقه، ونشير هنا إلى حال من أحوال الرضى بناه الإمام على اليقين تحقيقاً لرأيه السابق فى مراتب السلوك، وذلك أن رجلاً قد أساء إليه، فـمكن الخليفة الإمام من خصـمه فلم يعرض له، فقال له ابنه عبد الله: يا أبت لم لا تتـعرض له، وإن أثره عندنا لسئ، فـقال: «يا بنى نكله إلى الله، فـوالله ما عرض له أحد من آل الحسين بحرف إلا تصرّم أمره».

ولاشك عند أهل الفقـه فى جواز القصاص مـن المعتدى بمثل ما اعـتدى به، ولكن الإمام حينمـا بلغ أعلى درجات اليقين شاهـد عياناً ما عند الله لأهل الصـفح والمغفرة، فآثر الرضى بما جـرى لأن شهـد ما فى الصفح من خـير أبهمـه القرآن الكريم لجـزالته وعظمتـه حتى لا تطيقه العـبارات، وليس أدعى إلى تصرم الأمر حـيقاً من الارتداد عن الدرجات العليا إلى الدرجات الدنيا من خلائق القرآن وآدابه.

ومن معـالى يقينه ما أجمـعت عليه الروايات من أن الإمام كان إذا فـرغ من وضوئه للصلاة وصـار بين وضوئه وصـلاته أخذته رعـدة ونفضة، فـقيل له فى ذلك، فـقال: «ويحكم، أتدرون إلى من أقوم، ومن أريد أن أناجى»؟

فهو كـما نرى يشهد ما بعـد الوضوء من المناجاة الموجهة إلى الله شـهوداً يقرب من درجة العـيان وإن كان عيـاناً بالقلب والهمة، ومن ذا الذى لا يرتعـد وينتفض إذا أيقن بموقفـه من ربه فى الصلاة؟ وإن الرجل العـادى لينتفض ويرتعـد إلا إذا وقف بين يدى ولاة الأمر، فـما الحال والموقف بين يدى الإله القـاهر فوق العبـاد؟ ولكن المسألة هى: الغفلة، أو اليقين.

ومنه واقعـة سقوط ابـنه فى البئر، وعـدم شعوره بما جـرى حتى أنقـذه الناس وقد رويناها من قبل.

وروى ابن كثـير أن البيت الذى هو كان قـد احترق وهو قائم يصلى، فلمـا انصرف قالوا له: مالك لم تنصرف؟ فقال: إنى اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وروى أبو نعيم وابن كـثير: أن الإمـام سمع ناعية (وفى روايـة ابن كثير داعـية) فى البيت وعنـده جماعـة، فنهض إلى منزله ثم رجع إلى مجلسـه، فقـيل له: أمن حدث كانت الناعية؟ قال: نعم، فعزوه وتعجبوا من صبره، فقال: «إنا أهل بيت نطيع الله فيما نحب، ونحمده فيما نكره».

وتلك قمـة الرضى لا يدركهـا إلا أهل البيت النبوى والسـائرون على هداهم، هو:

بذل المحبوب الذى تتعشقه النفوس، وتحـرص على اقتنائه من مال وولد ومتاع، ومحوه من القلب إذ أراده الله، والسرور بكل ما تنفر منه النفـوس من بليته أو محنة فى مال أو ولد، ومقـابلة هذا الفقد بالحمـد والشكر على ما يقابله من نعـيم موعود مشـهود بعين اليقين.

وهذا اليقين على هـذه الصورة ليس رجاء كله، ولكنه كـما قلنا يغلب عليـه الجلال والخوف فى كثير من الحالات، لاسيـما عند أداء الفرائض التى يخشى الموقنون ألا تقبل لما يعتورها من تقصير قائم على اتهام النفس.

ومن هنا قد يتـردد الموقن بعامل الخوف ويضطرب أمره حين أداء الشـعائر، وما هذا الاضطراب إلا دلالة على قوة اليقين، وقوة المشاهدة معاً.

قال طاووس بن كيسان: لما حج على بن الحسين أراد أن يلبى، فارتعد وقال: أخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فيقال لى: لا لبيك، قال: فشجعوه على التلبية، فلما لبى غشى عليه حتى سقط عن الراحلة.

وما كان ذلك إلا عن شهود قلبى على وجـه اليقين من إجابة الله تعالى له بما أذهله عن وجـوده من أنواع الملاطفات وفـيض الحب، وإن المرء لتـساوره الـغشـية من تذكـر وتأمل، فما بال أهل اليقين والشهود؟

والشهود هو القرب، والقرب قمة مواهب الروح.

والقرب هو اختصار الوسائل فى إدراك غير المنظور على صورة ما من صور الإدراك، وكلما قلت وسائل الإدراك علت الدرجة فى مقام القـرب، واشتد الإحساس بالمشهود، وتسارع وعى الروح إلى الاستجابة لأمور الغيب.

إنه سقـوط الحجب التى تحـجب القلب أو الروح عن الشعور بالحـقائق المتـجلية فى مظاهر الحيـاة، فتلك الحجب تصـد فيض النور الفائض من الغـيب المطلق عن الوصول إلى القلب، فيـبقى القلب مظلماً، ولا يفـيد وقوع النور على حـجب النفس الممثلة فى الأهواء والشهوات وعقد القلب على حب الماديات.

ولتقريب الفهم نقول: إن القلب الفطرى مضئ بطبعه، مستعد لتلقى الأنوار الفائضة من الغيب فى سرعة ووعى وفقه عميق، والذى يحجب القلب عن عمله، أو يبطئ منه هو تعلقه بالمظاهر المادية حـبا وعشقاً على أى صورة من صـور الحلال أو الحرام، ولكن

اتعلق بالحلال يدعه محجوباً، أما التعلق بالحرام فيدعه أغلف أضم فاقداً لطبيعته المنيرة الواعية.

وكلما كثرت الحجب انعدمت استجابة القلب للظواهر الروحية الغيبية، وكلما قلت الحجب أبطأت استجابته لتلك الظواهر، فإذا انجابت تلك الحجب بعامل المجاهدة والتطهير، أو بعامل الطبع والاستعداد فإن الإنسان حينئذ يصبح موهوباً فى عالم الروح، يدرك الحقائق من حيث لا يدركها المحجوبون، ويتفاعل معها فى سرعة من حيث يبطئ المجاهدون لإزاحة الحجب.

ومن هنا كان ارتعاد فرائض السجاد وهو يستعد للصلاة، وكانت صرعته حين التلبية، فهو صاحب قلب نقى صاف طاهر من الدنس يدرك آثار الغيب فى كل موجود فيزداد فقهاً وعلماً، ويواجه الغيب فيرتعد أو يصعق، وهى وراثة نبوية معهودة فى طبائع النبى محمد ﷺ لا تخفى على دارس.

ومن هنا كذلك كان تقييم العامة للإمام صدى لما كان معهوداً فيه فى حياته على صورة من صور المجاز أو الحق، فهو فى نظرهم باب الأسرار، وهم كما يقولون كلاب على باب على.

هو باب الأسرار لأنه رجل الروح الموهوب فى عالمها، يدرك مالا يدركه العامة، ويشهد مالا يشهده المجاهدون.

وهم كلاب على بابه فى صورة من صور الإخلاص المعهودة فى الكلب، يقيمون على بابه رغبة فى الاستهداء بهديه، وتقليده فى سلوكه كما كان الشأن فى مريدى العلم والسلوك فى الصدر الأول.

وإلى جانب هذا وذاك هو باب الكرم، يقصده طلاب الرفد فى العصر الحاضر كما كان يرجو رفده العفاة فى حياته، وما أعجب أن تحيا الخلائق بعد وفاة الإمام فيعيش الآلاف على العطاء المبذول عند مسجده حباً فيه، كما كان يعيش الناس على عطائه الشخصى فى حياته.

أليس ذلك من مواريث الصدق فى السلوك، وأثره الفعال من عالم البرزخ؟!

عالم أهل البيت

كان العلم من خصائص أهل البيت، فكانوا مرجع الخاص والعام فيه بحكم البيئة التى عاشوا فيها، وبحكم القدوة العملية التى نشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم.

وكان الإمام السجاد أفقه أهل زمانه، وشهد بذلك الإمام الزهرى الذى كان يدمن الجلوس إليه، ويفيد من علمه الغزير.

والإجماع على أنه كان قليل الحديث، وكان ثقة مأمونًا عاليا رفيعًا فى الإسناد. أما قلة حديثه فترجع إلى أنه لم يكن بحاجة إلى الرواية وتتبع الحديث لأنه ربيب السنة، وشاهد أصولها فى سلوك أبيه وفى سلوك الصحابة الذين شهدهم، وفى سلوك أمهات المؤمنين.

كان قد روى الحديث عن أبيه الإمام الحسين بن على رضوان الله عليهم، وعن عمه الإمام الحسن بن على، وعن ابن عباس والمسور بن مخرمة وأبى هريرة وجابر وصفية، وعائشة، وأم سلمة، أمهات المؤمنين رضى الله عنهم جميعا.

وروى عنه جماعة منهم: بنوه زيد، وعبد الله، وعمر، وأبو جعفر الفقيه محمد بن على، ومن غيرهم : زيد بن أسلم، وطاووس بن كيسان، والزهرى، . ويحيى بن سعيد الأنصارى وغيرهم.

ويقول أبو بكر ن أبى شيبة فى جودة سنده: «أصلح الأسانيد كلها: الزهرى عن على بن الحسين، عن أبيه عن جده».

وكان العصر غنيًا بالفقهاء الذين كانوا يرجعون إليه، ويتتبعون فتاواه فى المعضلات. ومن عجيب الأمور أن كثيرا من الفقهاء الكبار ماتوا فى السنة التى مات فيها شيخهم على بن الحسين، حتى أطلق المؤرخون على تلك السنة «سنة الفقهاء»، ومنهم: سعيد بن جبير، الذى قتله الحجاج، وسعيد بن المسيب، وطلق بن حبيب الغنرى، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث.

وكان زين العابدين رغم جلالة قدره فى العلم، وسيادته وشرفه بين العرب لا يأنف من تتبع مصادر العلم الأخرى، فيجلس إلى غيره متعلماً أو مستفيدا لا يجد فى ذلك

من القصاصة ما يجده الكثيرون من علماء العصر الحاضر المحدثين.

وكان الإمام كما قلنا من قبل ونقول الآن: ذا سلوك هادف فى جميع الميادين، يريد لنفسه منه خيرا، ويقاوم به شرا قد ذاع بين الناس، أو مبدأ تبناه خلفاء بنى أمية، ويذكر الجمهور بتعاليم الإسلام التى كادت تضيع بين تلك البدع الجاهلية.

كان - كما قلنا - لا يرى القتال مجدياً، وذلك لضعف الوازع الدافع إلى الجهاد فى سبيل الله، وقوة الوازع الدافع إلى إجابة مطالب النفس، ولذلك كان ينهى أهل خراسان وغيرهم عن القتال حينما كانوا يشكون إليه المظالم التى ينزلها بهم حكام بنى أمية، ومع ذلك كان يرى أن إحياء مبادئ الإسلام بالقدوة الحسنة، والجهر بالسنن والآداب الإسلامية فى مواجهة الانحراف عنها قوة لا تقل بلاغة عن السيف.

كان يرتاد مجلس عبد الله بن عباس كثيرا للإفادة من علمه، وكان ابن عباس يحبه حبًا شديداً، ويروى اسحق بن الغيرار بن حريث: أنه كان عند ابن عباس، فجاء على بن الحسين، فقال له ابن عباس: «مرحبا بالحبيب ابن الحبيب».

وليس فى مجالسته لابن عباس غرابة، فهو هاشمى له مكانته فى العلم، ومقامه بين الصحابة، ومنزلته من رسول الله ﷺ، ولكن الغريب الذى يستحق الانتباه هو قصده إلى مجالس الموالى والعلماء، وإصراره على إعلان سلوكه هذا مع هؤلاء العلماء، فما ذا كان هدف الإمام من ذلك؟

كان الأمويون يحتقرون الموالى ولو كانوا علماء، وكانوا يسلكون معهم مسلكا مجافيا لظاهر أحكام الإسلام ولروحه معاً، وكانوا يرغمونهم على الحرب رجالاً، وغيرهم من العرب يحاربون ركبانا، بل إن الحجاج قد اقتضى الجزية من مسلمى الموالى بعد إسلامهم، وكان الجهل قد بدأ يسيطر على الخلفاء وعلى أبنائهم، حتى لقد روى الشعرانى وغيره: أن سليمان بن عبد الملك جلس إلى عطاء وكتب عنه المناسك ثم التفت إلى بنيه وقال لهم: «تعلموا العلم، فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود».

ومن المصادقات الغريبة أن كبار العلماء فى ذلك العصر كانوا من الموالى: كالحسن البصرى، وطاووس، وسعيد ابن جبير، وغيرهم.

وكان السلوك الأموى إزاء العلماء من غير العرب شائنا، إذ كان يهدد باندثار العلم، ويؤثر الارستقراطية القرشية على شرف العلم، ويفرق بين أبناء الدين الواحد، ويبعث

العنصرية من مكمنها: حتى تحولت فيما بعد إلى شعوبية كان لها آثار سيئة على بناء الدولة ووحدتها.

لذلك كان الإمام يرى: أن قدر الإنسان فى علمه وسلوكه، مولى كان أم حراً، قرشيا كان أو فارسيا، فالإسلام هو الأصل الذى محى الفوارق العنصرية، وقبر الأرستقراطية المادية، وعلا على كل القيم الجاهلية وغير الجاهلية التى لم يقرها قانون السماء.

ونفذ الإمام السجاد ما آمن به، وجلس إلى غير العرب من العلماء متعلما ومستفيداً، وقصد من ذلك فوق إحياء أصل إسلامى هام هو المساواة بين الجميع فى الحقوق، واعتبار العلم والتقوى مقياسا للتفضيل دون سواهما، قصد إلى جانب ذلك أن يضفع الشيعة الذين كانوا يرتفعون بالأئمة فوق المستوى البشرى، ويرون أنهم مصدر العلم، والعلم كله إمداد منهم وفيض، وتلك فرية أشد ضررا على الإسلام من التفرقة العنصرية، إذ أنها تفتح باباً للغرائب والعجائب والأساطير التى تنسب إلى الأئمة فى مجال العلم والمعرفة.

وكان هناك اعتراض على الإمام السجاد من الخلفاء وعمالهم، ومن الناس بوجه عام فى مجالسته للعلماء من الموالى، والاستماع إليهم، ولكنه لم يأبه لتلك الاعتراضات، بل أخذ يرد عليها بما يعيد المعترضين إلى الصواب من أصول الإسلام وآدابه.

لامه نافع بن جبير كما يروى أبو نعيم فقال له: غفر الله لك، أنت سيد الناس وأفضلهم، تجلس إلى هذا العبد فتجلس معه؟ يعنى زيد بن أسلم، فقال الإمام: «إن هذا العلم ينبغى أن يتبع حيث كان».

وكان يبدو من سلوك الإمام هنا ما يشبه التحدى، ويروى محمد بن عد الرحمن المدينى فى ذلك: أنه كان يتخطى حلق قومه حتى يأت زيد بن أسلم فيجلس معه، ثم يقول للناس: «إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه فى دينه».

وكان يجلس إلى مولى عمر بن الخطاب فقال له رجل قرشى: تدع قريشا وتجلس إلى عبد بنى عدى؟ فقال الإمام: «إنما يجلس الرجل حيث ينتفع».

وبهذا السلوك الإسلامى الأصيل استطاع الإمام أن يرتفع بالعلماء إلى أماكنهم التى أقرها لهم الإسلام، كما استطاع أن يحتفظ بتراث هؤلاء العلماء بعد ما كادت عنصرية بنى أمية أن تقضى عليه، وتقضى على الكثير من آداب الإسلام معه.

ومن يدرى ماذا كان يحدث لو لم يفعل الإمام ما فعل؟ أليس من الجائز أن يكون

الإسلام هو ما يقرره الجهلاء من مبادئ تخدم أهواءهم بعد أن تنجح الدعاية ووسائل الإعلام الأموية فى احتقار مصادر العلم غير العربية، بل وغير القرشية، ثم غير الأموية إن وجدت سبيلاً خالياً من العوائق لنشر تلك الدعوة الخبيثة؟

بل إن هذا هو الذى يؤكده واقع بنى أمية، وتصرخ به عواطفهم، ولكن زين العابدين استطاع بالحكمة ان يوقف هذا التيار المدمر، وأن يجعل من نفسه درساً لغيره من الطلاب يردد على مدي العصور : إن العلم يجب ان يتتبع حيث كان مصدره، دون نظر إلى عربى أو غير عربى، فالعنصرية مخالفة للإسلام ولو كان هوى الخلفاء معلقا بها، فالإسلام يحكم الخلفاء، وليس لخليفة ان يحكم الإسلام.

وفى المجال الشيعى روى الاعمش عن مسعود بن مالك قال: قال لى على بن الحسين: أتستطيع ان تجمعنى على سعيد بن جبير؟ فقلت: ما تصنع به؟ فقال: أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها ولا ننقصه، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء، وأشار بيده إلى العراق.

بل لقد كان الإمام رضى الله عنه يفعل احيانا ما يفعل الطالب البادئ، فيسعى إلى العلماء، ويجلس كما يجلس الطالب، وينتظر حتى ينتهي الشيخ من شأنه، يريد بذلك أن يضرب المثل الأعلى فى الأدب بين يدى العلماء.

روى ابن سعد أن الإمام زين العابدين جاء إلى عبيد الله بن عتبة بن مسعود يسأله عن بعض الشيء، وأصحابه عنده وهو يصلي، فلما قضى صلاته أقبل عليهم فقال له أصحابه: ابن بنت رسول الله ﷺ جاءك لسالك عن بعض الشيء، فلو أقبلت عليه فقضيت حاجته ثم أقبلت علينا أنت فيه؟ فقال: أيهات، لابد لمن طلب هذا الأمر أن يتعنى.

وتلك ثمرة من ثمرات جهد الإمام فيرفع معنويات علماء العصر، فعبيد الله يعلم كغيره من العلماء أن زين العابدين له من العلم ما ليس لهم، ولكنه قد يحتاج إليهم فى رواية السنة بعض الحاجة، ولو أنه بعث إلى أحدهم لجاءه يسعى اعترافا بفضله، وعرفانا لقدرة، ولكنه كان حريصا كل الحرص على الاحتفاظ باحترام العلماء ومكانتهم بين الناس حتى لا يمتهن العلم بامتهان العلماء.

وكان الإمام زين العابدين حريصا كل الحرص على رعاية طقوس معينة لمجالس العلم قوامها ومرجعها السنة التى وردت عن النبى ﷺ ، وهدفها التماس بركة المجلس وحسن

التوفيق للإفادة، وإحياء للقرآن، وتأكيدا لحاجة الإنسان وفقره إلى الله أن يرزقه العلم والعمل.

قال يزيد بن حازم: رأيت على بن الحسين وسليمان بن يسار يجلسان بين القبر والمنبر يتحدثان إلى ارتفاع الضحى ويتذاكران، فإذا أراد أن يقوما قرأ عليهم عبد الله بن أبى سلمة سورة، فإذا فرغ دعوا لله.

وتلك سنة من سنن رسول الله ﷺ تؤكد وجوب ذكر الله عند بداية المجلس وفى نهايته، أما القرآن فهو الذكر الحكيم فليس فى قراءته عند انتهاء المجلس بدعة.

مكانه السياسى

مكان أى زعيم فى السياسة يرتبط بمقامه فى مجتمعه لا يريم عنه، مضافا إلى موهبته السياسية التى تهدف إلى قيادة الشعب نحو السلام والأمن والحق والعدل.

فإذا كان للرجل دربة فى القيادة، وإيمان بالعدل ، ورغبة فى سيادته، وليس له مقام اجتماعى يجمع إليه القلوب ، أو كان له حب وإجلال في القلوب، ولم تكن له دربة فى السياسة، ولا رغبة فى سيادة الحق والعدل، فليس مؤهلاً لمكان سياسى مرموق، ولا هو صالح فى واقع الأمر لولاية أمور الناس.

أما مقام زين العابدين فى المجتمع العربى كله فهو واضح من قول الجاحظ- وهو عثمانى النزعة- : «لم أر الخارجى فى أمره إلا كالشيعى، ولا العامى إلا كالخاصى».

وهو شهادة حق من عثمانى كان يصح أن ينقم على الإمام شيئا، لولا أن الإمام كان على خلائق الشرف التى لا يجد فيها عدوه مغمزا ولا فرصة لتشهير ولا لتشويه.

بل إن شاعرا كالفرزدق باعتباره متكسبا بشعره ومدائحه وأهاجيه على السواء عرض نفسه لأوخم العواقب حينما وجد تهاونا فى حق الإمام من جانب هشام بن عبد الملك قبل أن يلى الخلافة فى واقعة طريفة يحسن أن نسوقها .

فقد حج هشام، فاجتهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يستطع حتى نصب له منبر، فاستلم الحجر وجلس عليه. واجتمع الناس حوله، فجاء على زين العابدين، فتفرق الناس عن هشام، ووقفوا للإمام وتنحوا حتى استلم الحجر، فقال له أهل الشام (نفاقا له): من هذا؟ فقال: لا أعرفه، فقال الفرزدق: لكنى أعرفه، هذا على بن الحسين. ثم أنشد قصيدة طويلة نختار منها:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... عند الحطيم إذا ما جاء يستلم

يغضى حياء ويغضى من مهابته	فلا يكلمه إلا حين يبتسم
بكفة خيزران ريحها عبق	من كف أروع فى عرنينه شمم
ينجاب نور الهدى من نور رغرته	كالشمس ينجاب عن إشراقها الغيم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم	أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا
من جده وان فضل الأنبياء له	وفضل أمته وأنت لها الأم
من معشر حبهم دين وبغضهم	كفر وقربهم منجى ومعتصم
يستدفع السوء والبلوى بحبهم	ويستزاد به الإحسان والنعم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم	فى كل حكم ومختوم به الكلم
وليس قولك من هذا بضائره	العرب تعرف من أنكرت والعجم

فغضب هشام، وأمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة، فلما بلغ على بن الحسين ذلك بعث إلى الفرزدق باثنى عشر الف درهم، فلم يقبلها وقال: إنما قلت ما قلت لله عز وجل، ونصرة للحق، وقياما بحق رسول الله ﷺ، فأرسل إليه يقول: قد علم الله صدق نيتك فى ذلك، وأقسمت بالله عليك لتقبلنها . فتقبلها ثم جعل يهجو هشاما، وكان مما قال فيه:

أيحبسنى بين المدينة والتى	إليها قلوب الناس يهوى حنينها
يقلب رأسا لم يكن رأس سيد	وعينين حولاوين باد عيوبها

وحتى الأمويون أنفسهم كانوا يحسون حاجتهم إلى رأيه، فيروى ابن كثير: أن عبد الملك بن مروان استقدمه إلى الشام فاستشاره فى جواب ملك الروم عن بعض ما كتب إليه فيه من أمر السكة، وطراز القراطيس.

ولم تكن الجائزة التى بعث بها الإمام إلى الفرزدق من تلك الجوائز التى يرصدها السياسيون استغلالا لمواقع التأييد الشعبية، بل كانت بمثابة التعويض عما لحق الفرزدق من خسائر وما ينتظره من أخطار محتملة لإقدامه على تلك المواجهة الخطيرة لولى العهد، فليس من خلائق الإمام استغلال مواقع التأييد، وليس من خلائقه العمل على تكوين خلايا مؤيدة له، بل لم يكن من آماله أن يتولى الحكم، فلا تشهد واقعة من

حياته بأنه كان يسعى إلى الزعامة وإن سعت إليه فى كثير من الأحوال.

كان يؤيد الحق ويسعى إليه، ويجهد نفسه فى سبيل تأصيله بالقدوة الحسنة وإن جار على مؤيدين من الشيعة أو صدمهم فى عقائدهم، وكان يقاوم الباطل فى مختلف صوره وإن كان صادرا من أشد الناس فدائية لآل البيت، وبهذا وحده كان مؤهلا للزعامة السياسية، متسما بسمات الزعيم الذى تخلد مبادئه من حيث يتصرم أمر خصومه تحت تأثير الحق الذى تبناه مدى حياته.

لم يكن يحرص على جمع الأنصار المبطلين كما يحرص محترفوا السياسة فى أنحاء العالم الحديث، وفى ربوع دولة الإسلام فى عصرة، وآية ذلك أن الشيعة كانوا يتكاثرون متأثرين بالسرية التى أضفوها على مذهبهم، وبالأساطير التى نسبوها إلى الأئمة حتى أغروا الناس بالاجتماع عليهم، ولكن الإمام أعلن نفوره منهم حين قال: «ما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا».

وكانت حركة المختار الثقفى حركة فدائية يمكن استغلالها وتعديل منهجها لتتخذ طريقها إلى النجاح، وكان المختار نفسه يرغب فى زعامة الإمام السجاد حيث خذله ابن الحنفية هو الآخر بعدم تأييده فى آرائه الأسطورية، وقد أرسل المختار إلى زين العابدين مائة ألف دينار فأبى أن يقبلها، لأنه أدرك أنها محاولة لتأليف قلبه نحوه، ولقد أعلن الإمام السبب فى عدم تأييده للمختار حينما وقف على باب الكعبة ؟ ولعن المختار بعد قتله، فقال له رجل: تلعنه - جعلنى الله فداك - وإنما ذبح فيكم؟ فقال: «إنه كان كذابا يكذب على الله ورسوله».

كانت دعوة المختار الممثلة فى شعاره الظاهر: «يالثارات الحسين»، حقا يغلفه الباطل الممثل فى دعوى النبوة، ويحدده الأمل الشخصى، والوصولية الرخيصة، وكان يتذرع ببعض الحق فى وسائل الإعداد، من مثل رد اعتبار الموالى، وجعلهم قوام جيشه، ولكن الباطل فى الهدف يعكر الحق فى الوسائل، والإمام لا يريد إلا الحق الشامل البرئ عن الهدف الشخصى، والأطماع الفردية، الحق الذى يبدأ من الإسلام، وينتهى إليه، فلا شىء يعنيه إلا الإسلام وحده.

ولم يكن الإمام من ذلك النوع من الزعماء الذين تجوز عليهم حيل الطامعين، وألاعيب السياسة التى تشبه إلى حد كبير ألاعيب الدبلوماسية الحديثة، فهو صاحب ذكاء ألمعى موروث عن جده على وعن أبيه الحسين، وعن خلاصة البشر جده الأعلى

صلوات الله وسلامه عليه.

وهو من طراز «دستورى» فريد بين عواصف الفتن التى شملت عصره، واجتاحت بين زوابعها كثيرا من العلماء ورجال الفكر، ولكنه بقى دستوريا قويا لا يفرط فى أقل مواد دستوره ودستور الأمة شأنا فى أنظار الناس، ومن هنا كما قلنا كان زعيما بفطرته وإن لم يكن على كرسى الخلافة المدخول.

وما من واقعة فى حياة الإمام إلا وهى تعلن مواهبه السياسية النادرة فى المجال الدستورى، كما تعلن زعامته الكامنة فى أغوار شخصيته فلا تستطيع العواصف أن تنال من جوهرها ولا نقائها قليلاً ولا كثيراً.

كان سلوك الأمويين نحو أهل بيته ونحو أبيه يغرى من ليس على شاكلته من قوة الإيمان بالدستور باستغلال أى فرصة وأى بادرة وأى موقف يزعزع من سلطان خصمه، ويصعد به إلى الخلافة حتى يأخذ الثار لنفسه ولأهل بيته، ولكنه لم يفعل لأن الدستور لا يقول بالخروج على الحكام بالسيف.

وكان هناك بعض مواقف شعبية عانى منها فى نفسه، ولو أنها أصابت غيره لأغرى بإذلال هذا الشعب انتقاما لنفسه، ولكن مصدر الالتزام عنده هو: الله، والحق، وليس فى شرعة الله ولا فى شرعة الحق انتصار للنفس، بل إن المواه والمدارك والجهود كلها فى الدستور الإلهى الذى دان به يجب أن توجه نحو نصرة الله ممثلة فى نصرة دين الحق. وهذا هو سر شخصية الإمام فى ميدان الزعامة الدينية والسياسية معا.

لقد كان مَثَلُ المؤيدين لبنى أمية مثل الكلاب المسعورة يغريها أصحابها بالعبث ببعض الناس لمجرد التسلية، فتتجاوز هذا النطاق إلى التمزيق والنهش إرضاء لساستها. وكان مثل الإمام والمتعقلين ممن حوله كالأسود تكبح جماح نفسها فلا تعرض للهزيل ولا تزاحم الكلاب على فرائسها.

لقد كان الإمام زين العابدين مع أبيه فى المعركة، ولكنه كان مريضا نائما، فلما قتل الإمام الحسين قال شمر بن ذى الجوش: اقتلوا هذا. فقال رجل من أصحابه: سبحان الله إتقتلون رجلا مريضا فتى حدثا لم يقاتل؟ وجاء عمر بن سعد فقال: لا تعرضوا لهذا ولا لهؤلاء النسوة.

وثار الجدل حول مصير زين العابدين، ومصير سيدات آل البيت وأوانسه، ولندع الإمام نفسه يروى ما حدث له آنذاك كما أثبته ابن سعد لندرك المدى البعيد الذى

وصلت إليه شخصيته من المتانة والقوة وعدم تأثير الباطل فى نفسه بالجور على الحق انتصارا لها كما يفعل الكثيرون من أبطال السياسة المعدودين فى التاريخ.

قال الإمام: «فقبلنى رجل منهم، وأكرم نزلى، واختصنى، وجعل يبكى كلما خرج ودخل، حتى كنت أقول: إن يكن عند أحد من الناس خير ووفاء فعند هذا الرجل.

إلى أن نادى منادى ابن زياد: ألا من وجد على بن الحسين فليأت به، فقد جعلنا فيه ثلاثمائة درهم. قال: فدخل والله على وهو يبكى، وجعل يربط يدى إلى عنقى وهو يقول: أخاف، فأخرجنى والله إليهم مربوطا حتى دفعنى إليهم، وأخذ ثلاثمائة درهم وأنا أنظر إليها.

فأخذت وأدخلت على ابن زياد، فقال: ما اسمك؟ قلت: كان لى أخ يقال له على أكبر منى قتلته الناس قال: بل الله قتله. قلت: «الله يتوفى الأنفس حين موتها».

فأمر ابن زياد بقتله. فصاحت زينب بنت على: يا بن زياد حسبك من دمائنا، أسألك بالله إن قتلته أن تقتلنى معه. فتركه.

فلما أتى يزيد بن معاوية بثقل الحسين بن على ومن بقى من أهله فأدخلوه عليه قام رجل من أهل الشام فقال: إن سباءهم حلال لنا. فقال على بن الحسين: كذبت ولؤمت، ما ذاك لك إلا أن تخرج من ملتنا، وتأتى بدين غير ديننا. فأطرق يزيد مليا ثم قال للشامى: اسكت، وقال لعلى بن الحسين: إن أردت أن تقيم عندنا فنصل رحمك، ونعرف لك حقك، وإن أحببت أن أردك إلى بلادك وأصلك، فقال: بل تردنى إلى بلادى. فرده.

أما الذهبى فى تاريخ الإسلام فيستعصى الصور الأليمة فى المأساة فيقول: جاء مخفر بن ثعلبة العائذى برأس الحسين إلى يزيد وقال: جئتك برأس أحمق الناس وألأمهم، فقال يزيد: ما ولدت أم مخفر أحمق ولا ألأم، ولكن الرجل لم يقرأ كتاب الله: «تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء».

وهى قولة لئيمة من يزيد فيها تورية واضحة، وتأبين على رأى مخفر بن ثعلبة من طرف خفى، وليس ذلك ببعيد على مثله ممن فسق عن دين الله على الصور المروية عنه فى التاريخ.

ويسوق الذهبى رواية أخرى يقول فيها: إن يزيد أخذ يعبث فى رأس الحسين رضى

الله عنه بقضيب من حديد في يده، ثم بكى وقال:

نفلق هاماً من رجال أحبة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

أما والله لو كنت صاحبك ما قتلتك. فقال على بن الحسين: ليس هكذا. قال: فكيف يا بن أم؟ قال: «ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى السماء إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها». وكان عنده عبد الرحمن بن الحكم، أخو مروان بن الحكم فقال:

لهام بجنب الطفّ أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذى النسب الوغل

سمية أمسى نسلها عدد الحصى وبنت رسول الله ليس لها نسل

فضرب يزيد صدره وقال: اسكت.

تلك وقائع المأساة التى عاشها الإمام السجاد زين العابدين وهو شاب لم يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر، وهى فترة من الحياة تزخر عادة بالآمال والطموح، وحب الزعامة، والاندفاع نحو الثأر، والجزاء بأكثر من الذنب، ولكن فى غير سليل بيت النبوة المجمع على فضله وتقواه وتفانيه فى الإسلام، والزعامة الاجتماعية القائمة على الدستور وحده.

وفى الجانب الأموى المقابل يصرخ «ازدواج الفكر» معلنا عن نفسه فى صراحة لا مواربة فيها. فالرجل الذى آوى الإمام فى بيته حرصاً على حياته إنما كان يحدوه الطمع فى الجعل الذى كان من المؤكد إعلانه لمن يدل عليه أو يأتى به، ولا زالت فى نفسه بقية من أسى على ما حل بآل البيت، ولذلك كان تصرفه مزدوجا بين الأسى وبين الفرح. الأسى على ما حل أعز الناس، والصقهم برسول الله ﷺ، والفرح بالمال المواتى فى عصر كان يقاس فيه الرجال بالجاه والمال.

وكان ازدواج الفكر يصرخ كذلك بين جند بنى أمية فمثلا فى الخلاف حول مصير الإمام، كما صرخ مرة أخرى فى رغبة بعض المسلمين فى استحلال بنات النبى ﷺ كأسرى حرب، وصرخ مرة ثالثة فى رأس الدولة يزيد بن معاوية ممثلا فى بكائه، وفى عبثه فى رأس أحب الناس إلى النبى ﷺ بقضيب من حديد.

ولكن الإمام كان بريئا طاهرا من هذا المرض العقلى المقيت وهو: ازدواج الفكر». فقد كان فى كل تصرفاته إزاء المأساة يلتزم بالقرآن وبدستور الله، ويتخذ منه الحاكم الأول على قوله وفعله، ولم تتوزعه الأهواء والأفكار السوداء من جهته، والإسلام من

جهة أخرى كما كان عليه خصومه الأمويون.

فماذا كان موقفه إذن؟

كان أول ما أعلنه على هدى من مصدر الالتزام الذى يدين به: عدم تشجيع الخروج بالسيف، وكان يصد كل من تساورهم نفوسهم أن يثوروا بالسيف، ويروى ابن سعد أن قوما من أهل خراسان جاءوه فشكوا إليه ظلم ولاتهم، فامرهم بالصبر وقال لهم: «إنى أقول لكم كما قال عيسى بن مريم: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة: ١١٨].

ونفس مصدر الإلزام الإلهى هو الذى دعاه إلى الصلاة خلف أئمة بنى الا امية، ويقول ابنه أبو جعفر: «إنا لنصلى خلفهم بغير تقية، وأشهد على على بن الحسين أنه كان يصلى خلفهم فى غير تقية» . فليست التقية – وهى نوع من المداراة – هى التى دعت الإمام إلى الصلاة خلفهم، ومالها تكون تقية وهى من قانون الإسلام ودستوره حفظا لوحدة الأمة، ونأيابها عن الفتن، وإيثارا للإصلاح عن طريق النصح والقدوة الحسنة المضادة للقدوة السيئة السائدة فى العصر.

من أجل هذا كان يحث على: الأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ما وجد السبيل إليه، ولا يبيح السكوت عن الأمر والنهى والعدول إلى الإنكار بالقلب إلا عند الضرورة القصوى. ويعلن رأيه قائلاً: «التارك للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كنا بذ كتاب الله وراء ظهره، إلا أن يتقى منه تقاة. قيل: وما تقاته؟ قال: «يخاف جبارا عنيدا أن يفرط عليه أو أن يطغى».

ولقد نجحت سياسة الإمام نجاحا باهرا، إذ كان عدد كبير من العلماء يفنون فى الأمر والنهى، حتى لقد تعرضوا للقتل والتشريد والصلب، وكونوا خطرا حقيقيا على حكم الظلم والطغيان، ومن أشهر هؤلاء العلماء بعد الإمام: سفيان الثورى الذى أرق مضاجع الخلفاء بسلوكه الإسلامى الأصيل.

كانت هناك فكرة شيعية تقول بالرجعة، وتعنى بعث الإمام القائم الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما من الموت، وتحقيق نصره على الظلمة، ثم تفرقت السبل بالشيعة فيمن يكون هذا القائم المبعوث، ويبدو أن الأنظار كانت موجهة نحو الإمام على باعتباره رأس العلويين، وفتى قريش وفارسها غير منازع.

وتلك فكرة تغرى أصحاب المطامع من الوصوليين بتشجيعها وتجميع الناس حولها، وإعدادهم لمعركة يفيد منها الطامع على أى صورة من صور الإفادة: إما قضاء على الخصم المنافس، وإما تأريقا لمضجعه، وإقلاقا لسكينته، وكلاهما نصر على أى حال.

ولكن الإمام الذى لم يلتزم نحو نفسه بشيء، ووجه التزامه كله نحو الحق والعدل والإسلام رفض هذه الفكرة وخيب آمال القائلين بها حينما جاءه رجل فسأله: متى يبعث الإمام على؟ فقال: « يبعث يوم القيامة، وتهمه نفسه ».

وهكذا لم يكتف الإمام بمقاومة فكرة الرجعة وحدها، بل إنه قاوم فكرة التأليه التى كانت تغزو عقول الشيعة بقوله للسائل: وتهمه نفسه. لأن هناك فكرة تبناها الشيعة وبرزت عند الإسماعيلية فيما بعد تقول: إن القائم هو الذى يتولى الثواب والعقاب يوم القيامة.

من هذا المنطلق الإسلامى الأصيل الموحد الهدف والوسيلة كانت عبقرية السجاد تلعب دورها البناء فى سياسة دولة الإسلام، إذ أمن الأمويون جانبه، واطمأنوا إلى براءته من أطماع الحكم، فتركوه لأن منهاجه لا يهدد عرش الأمويين فى زمنه على أى حال، بل وصلوه وأحبوه، وكان له من هذا الحب والأمن وسيلة إلى توسيع نطاق دعوته الإصلاحية، واتصاله بأوساط شعبية وعلمية لم تكرر تتهيأ له لو أنه شجع الباطل للوصول إلى الحق.

ومع هذه المسالمة النابعة أساساً من تعاليم الإسلام وقانونه الذى لا يعتريه الباطل، فلم يسكت عن الحق المهدر لآل البيت، لأنه اعتبر نفسه مسلما وجب عليه الدفاع عن آل بيت النبى ﷺ كما أمر القرآن وأكدت السنة النبوية.

روى ابن سعد عن المنهال بن عمر وقال: دخلت على على بن الحسين، فقلت له: كيف أصبحت أصلحك الله؟ قال: ما كنت أرى شيخا من أهل المصر مثلك لا يدرى كيف أصبحنا، فأما إذ لم تدر أو تعلم فسأخبرك:

أصبحنا فى قومنا بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وأصبح شيخنا وسيدنا (يعنى الإمام عليا) يُتَقرب إلى عدونا بشتمه أو سبه على المنابر، وأصبحت قريش تعد أن لها الفضل على العرب لأن محمدا ﷺ منها، لا يعد لها فضل إلا به، وأصبحت العرب مقرة لهم بذلك، وأصبحت العرب تعدّ لها الفضل على العجم، لأن محمدا ﷺ منها، لا يعدّ لها فضل إلا به، وأصبحت العجم

مقرة لهم بذلك.

فلئن كانت العرب صدقت أن لها الفضل على العجم، وصدقت قريش أن لها الفضل على العرب، لأن محمدا ﷺ منها، فإن لنا - أهل البيت- الفضل على قريش، لأن محمدا ﷺ منا.

فأصبحوا يأخذون بحقنا، ولا يعرفون لنا حقا، فهكذا أصبحنا، إن لم تدر كيف أصبحنا».

قال: فظننت أنه أراد أن يسمع من فى البيت.

هو منطق الحق والعدل، ومنطق الدستور على أى حال، وإن كانت العائدة من هذا المنطق السوى تعود على آل البيت، وعلى الإمام السجاد نفسه لأنه منهم، فالله تعالى يقول آمراً لنبيه أن يبلغ أمته: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

والنبى ﷺ يقول: «أحبوا آل بيتى لحبى».

ولا خير فى أمة تهدر حقوق آل بيت نبيها، بل هو شر سرعان ما يتطور إلى إهدار حق النبى نفسه، ومن ثم يهدر حق الدين ودستور القرآن.

فالمسألة هى الإسلام أولاً وأخيراً، وإن بدت فى ظاهر النظر خاصة بأهل البيت النبوى أنفسهم.

والإمام يشير فى قوله هذا إلى أساس الظلم الذى قام عليه حكم بنى أمية، وهو: استغلال حقوق الغير، وعدم الوفاء بحق هذا الغير الذى استغلوه.

أى: إنه الغدر والخداع الذى تقوم عليه أصول الحكم الأموى ممثلاً فى التعصب للجنس العربى باعتباره نبع النبوة، والتعصب لقريش باعتبارها الأم التى تفرع عنها نبى الله ﷺ، فإذا كان النبى ﷺ هو مصدر شرفهم فأين حقوق أبنائه وذريته، وهل فى شريعة الحق أن يذبح أبناؤه الذين يكونون جزءا رئيسيا من هذا الشرف الذى يدعيه بنو أمية لأنفسهم؟

كان الأمويون حقا يبطنون الغدر، وفى الوقت نفسه يستغلون الإسلام ورسوله فى سبيل الوصول إلى مآربهم، وكان آل البيت فى مواقعهم الإسلامية الأصيلة لا يتحولون

عنها إلى أى نوع من الوصولية والنفع الفردى.

كانت فتنة ابن الزبير بمكة، وكان الإمام يتخوفها ويتوجس منها شرا على الإسلام لا على نفسه، لأنها فى الظاهر تخدم مصالح آل البيت بمحاولته القضاء على بنى أمية.

وقد علل الإمام حزنه الذى كان يستبد به أيامها فى رواية رواها أبو نعيم وابن كثير وغيرهما، قالوا: إنه كان حزينا يستند إلى حائط فرآى رجلا عليه ثياب بيض فسأله عن سبب حزنه، أهو من أمر الرزق، أو من أمر الدنيا؟فقال الإمام: ما على هذا أحزن، إنما أتخوف فتنة ابن الزبير.

ولم يكن خوفه من فتنة ابن الزبير موجها نحو نفسه، وإنما كان - كراية - موجها نحو مصلحة الإسلام العليا. وقد كان ما تخوفه الإمام فعلا، إذ ضربت الكعبة بالمجانيق وهدمت، وانتهك الحرم، واستحلت الكعبة ولم تحل لأحد إلا للنبى ﷺ ساعة من نهار يوم الفتح دخل حرمها جيش الإسلام الفاتح للقضاء على الكفر، ثم حال عبد الملك بين المسلمين وبين الحج إلى الكعبة أيام ابن الزبير، وشجع فكرة الحج إلى قبة الصخرة فى بيت المقدس، الأمر الذى دعا الكثير من المفكرين إلى القول بعداء الأمويين للإسلام ولرسوله،لأنه قضى على أرستقراطيتهم فى مكة، فحاولوا إحياءها فى يت المقدس البديل من الكعبة.

بل إن المقدسى يروى فى كتابه «مثير الغرام» أن عبد الملك وكل بالصخرة خدما من اليهود أعفاهم هم وذرياتهم من الضرائب المفروضة على أمثالهم، كما أنفق عليها نفقات باهظة، وخطب الناس يحرضهم على استبدالها بالكعبة بيت الله الحرام، وأول بيت وضع للناس مباركاً فيه من رب العالمين.

فهل بان لنا الآن كيف استغل الأمويون حقوق النبى ﷺ على العرب فى بناء مطامعهم الشخصية، وأهدروا حقوق أبناء النبى ﷺ، وبالغوا فيها حتى أهدروا حقوق الإسلام نفسه، وهدموا الدستور القرآنى فى فريضة تعتبر ركناً من أركان الإسلام قالوا فيها بأهوائهم خدمة لأهوائهم ذاتها؟

وكانت السياسة الأموية الملتوية على الصورة التى رسمناها تحاول جاهدة ان تحد من حب الناس لآل بيت النبى ﷺ، وتسكت عن كل ما من يتناولونهم بالتجريح، ولكن سياسة الإمام التى عرفنا أساسها الالتزامى كانت ترد هؤلاء إلى الصواب فى سرعة ونجاح.

روى ابن سعد: أن هشام بن إسماعيل كان يؤذى على بن الحسين وأهل بيته،

يخطب بذلك على المنبر، وينال من على، فلما ولى الوليد عزله، وأمر به أن يوقف للناس. فكان يقول (أى هشام بن إسماعيل) : لا والله ما كان أحد من الناس أهم إلى من على بن حسين، كنت أقول: رجل صالح يسمع قوله.

فوقف للناس، فجمع على بن الحسين ولده وقرابته، ونهاهم عن التعرض له، وغدا على بن الحسين مارا لحاجته فما عرض له، فناداه هشام بن إسماعيل: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

وخرج يوما إلى المسجد فسبه رجل، فانتدب الناس إليه، فقال: دعوه، ثم أقبل عليه وقال: «ما ستر الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها»؟ فاستحيى الرجل، فألقى إليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل إذا رآه قال: «أنت من أولاد الأنبياء».

ونال منه رجل يوما، فجعل يتغافل عنه، فقال الرجل: إياك أعنى. فقال: وعنك أغضى.

ولئن كان الصفح عن المسئ مبدأ إسلاميا يفضل بكثير مبدأ القصاص المشروع، فإن قصص الصفح التى تتصل بالناحية السياسية فى تاريخ الإمام السجاد تشكل منهجا أكيدا هدفه تصحيح الأوضاع التى خلقتها أجهزة الإعلام الأموية بالنسبة للعلويين وآل بيت النبى ﷺ خاصة.

ورغم ان عبد الملك بن مروان كان يتحفز للقضاء على زين العابدين، وقد روى أبو نعيم أنه حمله إلى الشام مثقلا بالحديد، فقد نجحت سياسة الإمام فى كبت غيظ عبد الملك، وانتزعت حبه له بعد أن اقتنع بأنه لا يعمل لنفسه، ولا يرجو من وراء اتصاله بالناس مطمعا.

ولقد كان الإمام ذا منطق واع مقنع فى رد المنحرفين إلى الصواب، يتخذ من الحب والوئام وسيلة لتأليف القلوب، كما يتخذ من الشدة أحيانا وسيلة لنفس الهدف.

روى أبو نعيم أنه جاءه ناس من أهل العراق فقالوا فى أبى بكر وعمر وعثمان، فقال لهم: أنتم المهاجرون الأولون؟ قالوا: لا. قال: فأنتم الذين تبوأوا الدار والإيمان يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا؟ قالوا: لا. قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين.. اخرجوا فعل الله بكم.

بقى أن ننظر قليلا لنتعرف إلى القيمة العملية للمنهج السياسى الذى سار عليه الإمام السجاد.

هو منهج المسالمة للعدو المسلم، وإنكار الذات، واعتبار مصلحة الإسلام، والحق والعدل هى المصلحة العليا التى لا تعلوها مصلحة بالغة ما بلغت، والتضحية فى سبيل تهيئة المناخ الصالح لعودة الأخوة إلى حالها وتلك بعينها هى سياسة النبى ﷺ التى انتهجها فى صدر الإسلام الأول.

وكان النبى ﷺ يهدف منها إلى الكشف عن وجه الإسلام الرحيم المتسامح، الذى يفسح الطريق أمام المواهب لتبرز إلى ميدان العمل، فلا يطيح بها حقد أهوج، ولا تجنى عليها مطامع نفس جائرة، بل لقد كان هذا السلاح نفسه هو الذى هدم كبرياء أبى سفيان جد بنى أمية، وأدال من جبروتهم.

كما أن تلك السياسة من الوجهة الاجتماعية تَسُلّ الاحقاد من الصدور مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وعلى المستوى الاعلى لسياسة كانت القضية منذ الإمام على إلى الإمام زين العابدين ومن بعده هى قضية الالتزام فهل يعتبر المسلم ملتزما نحو الإسلام وحده بقوانينه التى تنحصر فى الحق والعدل، أو من الجائز أن يعتبر الإسلام مصدرا شكليا للالتزام، بحيث يلتزم نحو بما يخدم مصالح الذات، وينبذ منه ما يتعارض معها؟

أو بمعنى أوضح وأدق: هل يؤخذ الإسلام كما جاء فى القرآن الكريم، والسنة النبوية، وسلوك الراشدين المهديين دون تحوير ولا تأويل، أو يجوز فيه التطوير والتحويل حسب مقتضيات العصر المادية وحدها؟

لقد تبنى العلويون وآل البيت النبوى الرأى الأول، وتبنى الأمويون الرأى الثانى.

والحق أن القول بالتحرير أو التطوير أو التجديد قول لا يجوز إلا فيما جدّ بعد عصر النبى ﷺ من شئون لم تكن موجودة فى عهده من المعاملات والفروع، وليس خاصا بالأصول ولا متصلا بها.

فالحلال والحرام، وأصول الحكم، والمساواة بين شعوب الإسلام، والوضوح، والتسامح، والقدوة الحسنة، واطراح البدع، وغير ذلك من الأمور كل تلك شئون لا يجوز القول فيها

بالرأى، ولا يجوز عليها التبديل والتغيير والتجديد، لأنها الأصول الأولى التى يمكن للسياسة الإسلامية أن تسود على أساسها، والتى يمكن أن تغزو قلوب غير القابلين للإسلام بادئ النظر فلا يريدون به بديلاً، والتجديد فيها هدم لوسائل إنجاح الدعوة فى أقطار أخرى، وعمل على اندثار ما رسخ فى القلوب من خلائق الصدر الأول على مرور الزمن.

وما الاجتهاد المقرر فى الإسلام إلا فى وسيلة التنفيذ، بشرط مراعاة مصلحة الإسلام العليا أولاً وقبل كل شيء، أما إذا كانت المصلحة الفردية أو القبلية هى هدف الاجتهاد فهذا غير جائز فى عرف الإسلام، ولا فى عرف المجتهدين من صحابة رسول الله ﷺ.

ولئن قال قائل كما اعتاد المحدثون أن يقولوا أحيانا: إن سياسة الإمام على رضى الله عنه لم تكن حكيمة لأنه أضاع الخلافة من يده، بينما استحكمت سياسة معاوية فبقيت الخلافة فى بيته قول مجاوز للصواب بعيد عن العمق والشمول.

فلئن ضاعت الخلافة من يت الإمام على بسبب بعض الإجراءات التى رفضها الإمام فلم يكن ذلك عن جهل بآثارها، بل كان الإمام عليماً بما يعمل، خبيرا بنتائج ما آثار على ما رفض من تسلط، واستبداد بالرأى، ورشوة للجيش، والتواء فى الحديث، وتضليل للرأى العام.

وكانت المسألة عنده قضية قوامها البناء ومقاومة عن الهدم، وخير للإمام أن يخسر معركة الخلافة والإسلام قائم، وقانونه لا يعتريه تحريف ولا تضليل، من أن يكسب معركة ويهدم أصلاً من أصول سياسة الإسلام التى شرعت أصلا لغزو قلوب الملايين فى أرجاء العالم.

وكيف يؤثر الإمام ذاته على الإسلام ودستوره، وهو ربيب النبى ﷺ، والمتفرد بالعلم بين الصحابة، ومرجعهم الدستورى فى المعضلات؟

فخسران الإمام لمعركة الخلافة إحياء لمبدأ إنكار الذات، ومبدأ إنكار الذات، والوضوح خير ألف مرة عند الإمام من كسب معركة سياسية كان من الهين عليه كسبها، ولكن آثارها السيئة كانت من الخطورة بمكان.

كان هناك اعتراف وتأكيد لحق الذات من جانب بنى أمية، وكان هناك استبداد بالرأى، وكانت هناك رشوة للجيش وللشعب، وكان هناك تلويح بالشهوات لمن يريد، وتلك هى البلبلة بعينها، فلو أن الإمام هو الآخر وافق على تلك السياسة ونفذها لنجح

يقينا فى معركته، ولكن الدستور الإسلامى كان سيفتقد تلك المواد الرئيسية وهى: الشورى وعدم الاستبداد ، والقضاء على مبدأ الرشوة، والوضوح والحق. كما كان سيفتقد القدوة الحسنة المتبوعة فى سلوك الصحابة الذين أعلن النبى ﷺ وجوب الاهتداء بهم فى ظلمات الفتن، ومهام المشكلات.

وكان يمكن لأى إنسان يأتى بعد الإمام ان يلغى أى مادة من دستور الإسلام محتجا بفعل على رضى الله عنه باعتبار رأيه ورأى الصحابة أصلا من أصول الفقه الدستورى الإسلامى الحنيف. وتكون الفتنة العمياء التى يقول فيها كل دخيل برأيه إلى أن يمحى جوهر الإسلام، ويصبح لونا من الفلسفة الفارغة لا جدوى منها.

وكان الإمام الحسين ثورة على اجتهاد الأمويين، ومحاولة للعودة بالمسلمين إلى الطراز الأول من سياسة الإسلام. وكانت حكمة بنى أمية فى السياسة - التى يزعمها كتاب العصر الحديث أحيانا - قد وصلت بالمسلمين التابعين لهم، والملتفين حولهم إلى ما تخوفه الإمام على رضى الله عنه، وكانت لدى حماء السياسة كما يزعم بعض المحدثين أجهزة إعلام تنشر كل ما يخدم مصالحهم ولو كان باطلاً يروى من حديث رسول الله وكذبا عليه، أو تفسيرا لآية من القرآن تزعم أجهزة الإعلام تلك أنها رأى فلان ممن مات من الصحابة، واضطربت أفكار المسلمين، وازدوجت أفكارهم على النحو الذى عرضناه. وكان لابد من دم طاهر زكى شريف نبيل يراق ظلما وعدوانا حتى يكون ذكرا دائما عبر العصور لقضية السياسة الحقة للإسلام لا ينساه مسلم ما دام هناك ذكرى لقتل الحسين.

وكان قتله والظروف المحيطة به مثارا للفزع والألم كما أراد الله ليبقى حزب المعارضة للباطل قويا بأنصار أذكياء يتأثرون به، ويدركون أسراره مدى الأيام.

ولو لم يقتل مولانا الحسين، ولو لم يستذل أبناؤه وأهل بيته على الصورة المروية فى التاريخ لما بقى جوهر الإسلام إلى الآن، ولعدت عليه يد التأويل، ومفتريات الروايات الكاذبة، ولذلك كان الإمام على زين العابدين بن الحسين يقول دائما.

: «ما يسرنى أن لى بنصيبى من الذل حمر النعم».

وليس من المعقول مطلقاً أن يرغب الإمام السجاد فى الذل إلا لله وحده، شأنه فى ذلك شأن أهل البيت، بل وشأن أقل العباد والزهاد شأنا من غير آل البيت.

ولكن الإمام كما قلنا كان هادفا من كل كلمة وكل حركة وكل سكنة له فى حياته إلى هدف سياسى قوامه الإسلام والحق والعدل، ولم يكن مرتجلا فى أى سلوك سلكه

مدى حياته.

ففى ذله المضروب عليه إثبات لشخصية الإسلام، وذكرى لمن كان له قلب من بعده يواصل بها تحقيق شخصية الإسلام ويدفع الباطل، وذل مع الحق والعدل والإسلام هو ذل فى سبيل الله أولاً أخيراً.

ونعود فنقول: إن سياسة العلويين منذ الإمام حتى زين العابدين هى تأسيس لحزب معارض للباطل ينمو ويتكاثر على الأيام، ولو أن الإمام على أو الإمام الحسين، أو الإمام السجاد اصطنع وما يشبه السياسة الحديثة فى عصرنا للوصول إلى الحكم ولو بحجة أخذ الناس بالحق، والنأى بهم عن الباطل، فإن هذا العمل الخطير لم يكن إلا اتفاقا بين الأمويين والمعارضين للباطل من أهل البيت على الباطل، أو بمعنى أوضح: لم يكن - إن حدث - إلا اتفاقاً على إلغاء مواد دستورية هامة من أصول سياسة الإسلام العليا، وهو ما لم يكن الإمام ولا أبناؤه يوافقون عليه، مهما رماهم المفكرون المسلمون فيما بعدهم من الزمان بقصر الباع فى ميدان السياسة.

وأخيراً نقول: إن ما حافظ أئمة آل البيت عليه، وما آثروا الذل على التفريط فيه من أصول سياسة الإسلام هو ما ينادى به كثير من المخلصين الآن فى عصرنا الحاضر من إعادة النظر فى التاريخ، والعودة إلى أصول الإسلام الأولى كوسيلة للخلاص من الذل المضروب على المسلمين من جراء القول بالرأى، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المجرمون.

مكانه الاجتماعى

لقد بحثنا فى الفصل السابق مكانة الإمام السياسية منفصلة عن مكانته الاجتماعية التى أشرنا إليها إشارة عابرة لنثبت أن جدارته فى المجال السياسى كانت تعتمد على ذكائه ووعيه الدينى الشامل، وشخصيته الفذة، فإذا ما أضفنا إلى هذا مكانته الاجتماعية فقد تم أمره، واستحكمت شخصيته غاية الاستحكام فى مجال الزعامة التى تستند إلى الشخصية أولاً، ثم إلى المكانة الاجتماعية، لأن العكس ينزل بالزعامة من درجتها الأولى إلى المرتبة الثانية، لاعتمادها فى تلك الحالة على عوامل خارجة عن شخصية الإنسان.

هو فى نسبه كما قلنا يعتبر من جهة أدبيه أعرق أنساب الدنيا شرفاً وجاهاً.

وأما جده لأمه فهو «يزدجرد» أخر ملوك الفرس، وكان ليزدجرد ثلاث بنات سبين فى زمن عمر بن الخطاب، فكانت واحدة منهن لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فولدت له «سالما»، وكانت الثانية لمحمد بن أبى بكر الصديق، فولدت له «القاسم»، وكانت الثالثة للإمام الحسين بن على، فولدت له «عليا زين العابدين السجاد». فسالم بن عبد الله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبى بكر، والإمام السجاد له أبناء خالات. والثلاثة من أعيان الفقهاء العلماء فى الصدر الأول، فتضافر مجدهم فى العلم مع مجدهم جميعا فى الأصل العريق، ولكن زين العابدين قد تفوق عليهما فى النسب من جهة الأب، وبوصلته القريبة برسول الله ﷺ، وبأصالته فى بنى هاشم.

وكما كان عزيزا بأصوله كان عزيزا بين العرب بأولاده.

وقد تزوج الإمام السجاد أم عبد الله بنت عمه الحسن بن على بن أبى طالب، فولدت له: الحسن، والحسين الأكبر، وأبا جعفر الفقيه، وعبد الله.

ويقول الأصمعى: إن مروان بن الحكم قال له: لو اتخذت السرارى يكثر أولادك؟ فقال: ليس لى ما أتسرى به، فأقرضه مائة الف، فاشترى السرارى وكثر نسله، ثم لما مرض مروان أوصى الا يؤخذ منه شيء.

وولد له من إحدى أمهات أولاده: زيد المقتول بالكوفة وإمام الزيدية، وعمر، وعلى، وخديجة.

ومن أخرى ولد له: حسين الأصغر، وأم على، وهى علية.

ومن أخرى: كلثم، وسليمان – ولا عقب له ، ومليكة.

ومن رابعة: القاسم، وأم حسن(وهى حسنة) وأم الحسين، وفاطمة.

وكان رضى الله عنه مهيبا أبياً فى جمال وهياة حسنة، ولباس فاخر، تتوجه السيادة الموروثة، والبهاء النبوى الوقور.

ويقول شريك بن أبى بكر: إنه كان يصبغ بالسواد، أما موسى بن حبيب الطائفى فيقول: إنه كان يخضب بالحناء والكتم وكلاهما وردت من السنة النبوية، إذ أوصى صلى الله عليه وسلم بالسواد، وقال: هو أحظى لكم عند نسائكم، وأهيب فى قلوب عدوكم.

وقال عثمان بن حكيم: رأيت على على بن الحسين كساء خز وجبة خز.

وقال ابنه أبو جعفر: كان لعلى بن الحسين سب سبنجونة من ثعالب، فكان يلبسها، فإذا أراد أن يصلى نزعها. وقال: أهديت لعلى بن الحسين مستقة من العراق، فكان يلبسها، فإذا أراد أن يصلى نزعها.

وقال نصر بن أوس الطائفى: دخلت على على بن الحسين وعليه سحق ملحفة حمراء، وله جمة إلى المنكب مفروق.

ويقول يزيد بن حازم: رأيت على على بن الحسين طيلسانا كُردياً غليظاً، وخفين يمانيين غليظين.

ويروى حسين بن زيد بن على عن عمه عمر بن على أن على بن الحسين كان يشترى كساء الخز بخمسين دينارا فيشتو فيه ثم يبيعه فيتصدق بثمنه، ويصيف فى ثوبين من ثياب مصر أشمونيين بدينار، ويلبس ما بين ذا وذا من اللبوس، ويقول: «من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق». ويعتم، وينبذ له فى السُّعْن فى العيدين بغير عسكر، وكان يدهن أو يتطيب بعد الغسل إذا أراد الإحرام.

وقال سعيد بن أبى هند: رأيت على على بن الحسين قلنسوة بيضاء لاطئة.

وقال محمد بن هلال: كان على بن الحسين يعتم ويرخى عمامته خلف ظهره شبرا أو فويقه.

وقال موسى بن أبى حبيب : رأيت نعل على بن الحسين مدورة ليس لها لسان.

كان مظهره على هذا النحو من الجمال والفخامة والسيادة الظاهرة والباطنة، ولم يكن هذا المظهر الجميل إغراقا منه فى الترف، وإنما كان مما تستر فيه على مذهب أهل الملامة من نسبة الزهد والتواضع إليه، كما كان يتظاهر بالبخل وهو منه بعيد. والدليل على أنه كان يتستر بهذا اللباس الفاخر أنه كان إذا جن الليل حمل على ظهره جر الطعام إلى الأرامل والمساكين، وليست تلك خلائق المفرقين فى الأبهة والعظمة بأى حال. وما تستر به إنما هو مباح خالص لا شبهة فيه ولا مظنة شبهة.

على أن الإمام بحكم رئاسته لأهل البيت النبوى فى عصره كان لابد أن يظهر بمظهر لائق ببيت النبوة فى عصر سادت فيه الأبهة قصور الخلفاء، فكان لابد من الفارق بين أبهة المستكبرين وأبهة المتواضعين من ال البيت.

وكان الإمام رضى الله عنه يربط صلاته الاجتماعية بكل الطبقات المسلمة فى نطاق شريعة الإسلام وسنة النبى ﷺ يرفع بسلوكه معنويات أهدرت فى عصره بعد أن أطلت الأرستقراطية مرة أخرى برأسها. ولقد زوج الإمام ابنة له من مولاه، وأعتق جارية وتزوجها، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك، فكتب إليه : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة. فقد أعتق رسول الله ﷺ صفية وتزوجها، وأعتق زيد بن حارثة وزوجه ابنة عمته زينب بنت جحش.

وكما كان حرصا على رفع معنويات المعتقين على هذه الصورة الكريمة كان حريصا على حفظ الصلات بين آل بيت النبى قوية سليمة من التقاطع والتدابر باعتباره الرجل المرموق فى البيت بعد أبيه وعمه.

حدثت بينه وبين الحسن بن الحسن ابن عمه خصومة، وكانت بينهما مناقشة، فنال منه حسن وهو ساكت فلما كان الليل ذهب الإمام إليه وقال : يا بن عم، إن كنت صادقاً يغفر الله لى، وإن كنت كاذبا يغفر الله لك، وسلام عليك، ثم رجع. فحلقة حسن فصالحه.

وكانت صلاته تمتد حتى تشمل الخليفة نفسه، وكان الخليفة يحترمه ويبجله ويستجيب له، ولم يوص بأحد خيرا يوم وقعة الحرة إلا بعلى بن الحسين، وكان لشدة حرصه على ترابط المجتمع، والاحتفاظ بعلاقاته مع الجميع يصفح عن كل من أساء إليه، حتى روى ابن أبى الدنيا عن أبى حمزة الثمالى أنه كان إذا خرج قال : « اللهم إنى

أتصدق اليوم - أو أهب عرضى اليوم - لمن استحله».

وجماع مكانه الاجتماعى قول الجاحظ الذى ذكرناه آنفا: «لم أر الخارجى فيه إلا كالشيعى، ولا الخاصى فيه إلا كالعامى». أى إنه كان محوا من الجميع بحيث لا يبطن إنسان له عداوة، ومع ذلك فقد ان يسرع إلى سل أحقاد المغرضين، ويحولهم إلى أحبة بابتدائه لهم بالتحية والعطاء والاسترضاء.

الكريم الزاهد

اما ان يكون زين العابدين كريما فهذا أمر لا غرابة فيه، فهو ابن الأكرمين كابرا عن كابر فى كرم آبائه احد وأما أن يكون زاهداً فتلك سمة الكريم، إذ لا يجتمع حرص وكرم فى قلب إنسان.

ولكن الذى نريد ان نحققه هنا هو التوفيق بين المظهر الجميل واللباس الفاخر وبين خليقة الزهد.

وتحقيق الزهد أنه: عدم الحرص، أو عدم انعقاد القلب على حب المال ووسائل الانتفاع الأخرى، دوام الاستعداد لبذلها فى مواضعها المشروعة دون تردد.

هذا هو الزهد فى حقيقة معناه، فكم من غنى اجتمع له المال والجاه وهو زاهد، وكم من فقير مملق وهو حريص شحيح غير زاهد، هذا هو الأصل، ولكن تباين العصور واختلاف الأحوال فيها فتح للائمة من العلماء با الاجتهاد فى صورة الزهد لا فى أصله الذى أوضحناه.

كان الزهد فى عصر النبى ﷺ: بساطة فى الحياة، وتقلل من وسائل الانتفاع، وعود الفائض على المحتاجين من الفقراء والمساكين، ومع ذلك قد كان بين الصحابة الزاهدين من يلبسون اللباس الجميل الفاخر وهم فى الحقيقة زهاد.

وانسحب هذا المعنى على عصر الإمام زين العابدين، ولكن الناس بدأ والشجون ويحرصون ويعقدون قلوبهم على حب الدنيا، فاختار المعلمون أن يشمل الزهد ظاهر البدن فلا يكون عليه إلا أدون اللباس كدلالة على التحقق بمعنى الزهد الباطن فى القلب، وحفظا لآداب الإسلام من الادعاء الكاذب. وكانت عودة الإنسان من مظاهر الأبهة والفخامة إلى لباس الصوف أو غيره من اللباس الرخيص دليلاً على حقيقة ما فى القلب من تخلّ عن حب الدنيا إذا اقترن ذلك كله بالبذل والعطاء.

ولما استبد بالناس الطمع فى الدنيا، ومضى على ذلك زمن طويل، فسدت قلوبهم، وأصبح من العسير عليها أن تستعذب آداب الإسلام إلا بعد مجاهدة عنيفة، ففضل المعلمون أن يبتكروا الطرق المختلفة للمجاهدة كالجوع والإيثار، والعمل مع العامة فى الحرف والصناعات، والخروج عن الأملاك، والسهر، إلى غير ذلك من وسائل المجاهدة

المشروعة.

وحتى آل البيت أنفسهم كانوا يجاهدون أنفسم بين الحين والحين فى مسألة المال للحفاظ على ملكة خلو القلب من حب الدنيا، فقد قاسم الإمام الحسن ربه ماله ثلاث مرات، وقاسم زين العابدين ربه ماله مرتين وما كان هذا إلا تدريبا على تجربة النفس فى التخلى لئلا تأبى يوما من الأيام.

والزهد يشمل المال والجاه والنفس، ولا يتحقق إلا بهذه الأركان الثلاثة، فكم من زاهد فى المال غير زاهد فى الجاه والرئاسة، وكم من زاهد فى المال والرئاسة غير زاهد فى نفسه، بل يثور لها ويحمى أنفه إن نال منه أحد.

ولقد رأينا أن الإمام زين العابدين كان زاهدا فى الجاه، ونادى مراراً بأن الشيعة كذبوا فيما ينسبونه إليهم مما ليس فيهم، وقال مرارا: «نحن من صالحى قومنا، وكفانا أننا من صالحى قومنا». وقال: «ما أرضى أن يكون لى بنصيبى من الذل حمر النعم». واعتذر للصغير والكبير، وسعى إلى العامة يغدق عليهم جزاء لما نالوه به من السوء.

وكدليل على زهده زخرت سيرته بوقائع الكرم التى لا تكون إلا لزاهد قد تخلى عن حب الدنيا فلم يشغله منها متاع، ولم يحرص منها على شىء.

وكان عميق الفهم فقيه القلب فى كشف الأقنعة التى يتستر وراءها المحبون للدنيا العاقدون قلوبهم على حبها، فيقول: «إنى لأستحى من الله عز وجل أن أرى الأخ من إخوانى فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لى: فإذا كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل وأبخل وأبخل».

وإنما يعنى زين العابدين بهذا القول غيره ممن يبذلون الجنة لإخوانهم بالدعاء والابتهال، ويبخلون بما هو أدنى وأدنى من الجنة من حطام الدنيا، فهم كاذبون فى دعواهم رجاء الجنة لإخوانهم، وآية كذبهم بخلهم بالدنيا. ومن هذه النافذة التى فتحها الإمام نستطيع أن نطل على دنيا الدعاوى الكاذبة فى العلاقات الاجتماعية بأسرها.

فبذل الدنيا آية صدق النصح للمسلمين، وحب الخير لهم، وكراهة الشر أن يقع بهم، ومن أجل الدلالة على ذلك كان زين العابدين يقدم دليل الحب بين يدى العطاء. فيروى أبو نعيم: أنه كان إذا ناول الرجل الصدقة قبّله ثم ناوله. فالقبلة تعبير عن الحب المتبادل بين المؤمن والمؤمن، والعطاء دليل الحب الذى لا يكذب، أما الدعاء دون عطاء، وأما رجاء الخير مع الإمساك والشح فهو كذب ونفاق فى القلب لم نجد من فكر فى

كشفه بهذا الميزان الدقيق قبل الإمام زين العابدين.

كانت مقاييس الناس قد اضطربت فى عصره، ولازالت مضطربة إلى عصرنا الحاضر، إذ كان يقاس الناس بما يحرزون من الدنيا، وعلى مقدار ما يحرز الإنسان منها تكون منزلته. وهذا خطأ يوقع فى كبريات المشاكل، ويهدم الكثير من القيم، ويضلل الكثير من الناس فى حياتهم ومعاملاتهم.

وقد وضع الإمام ميزانا لأقدار الرجال حينما سئل: أى الناس أعظم خطرا؟ فقال: «من لم ير الدنيا لنفسه قدرا».

فهو لا يعنى أن أعظم الناس خطرا هو المجرد من الدنيا، ولكن أعظمهم خطرا هو الذى لا يبنى قدره ومنزلته على أساسها، ومن ثم فهو الباذل لها، والمؤثر غيره بها، لأنه إذا لم يرها لنفسه قدرا جاء بها وانحلت قبضته عنها.

وقد اعتبر الإمام السخاء مقياسا للسيادة فى الدنيا إذا اقترن بالتقوى، فالسخى الفاجر جبار فى الأرض يذل غيره بعطائه، ويستغل حرماته جزاء لنواله، أما السخى التقى فهو أشد حياء فى حال الإعطاء من طالب النوال فى حال السؤال، وفى ذلك يقول الإمام:

«سادة الناس فى الدنيا الأسخياء الأتقياء، وفى الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم الأتقياء، لأن العلماء ورثة الأنبياء».

ومما لا يحتاج إلى بيان أنه ما أراد بالعلماء إلا العاملين بالعلم الذين خالطت الخشية قلوبهم، ولم يرد بهم أولئك الجامعين للعلم الململين بشوارده دون عمل، فالعالم التقى عامل، ولا سيد فى الآخرة غيره.

وهو يعتبر البذل والعطاء عن كرم توبة من الذنب، وداعيا لغفرانه من الله تعالى، تصديقا لقوله فى كتابه الكريم: **«إن الحسنات يذهبن السيئات»**. ولذلك كان يقول حينما كان يقاسم الله تعالى ماله: **«إن الله يحب المؤمن التواب»**.

ولم يكن يحتاج إلى وقت للتفكير فيما يبذل أو فيما يكرم به إخوانه أو عبيده، بل كان سريع الإجابة وكأنه يلقى أذى ينفر منه ويزدريه.

روى عبد الرزاق قال: سكبت جارية لعلى بن حسين ماء ليتوضأ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه، فقالت الجارية: والكاظمين الغيظ. قال: كظمت غيظى. قالت: والعافين عن الناس. قال: عفوت عنك. قالت: إن الله يحب المحسنين. قال: أنت

حرة لوجه الله.

وكان يشمل بعطائه أعيان العصر وأبناء الصحابة، ويتحمل عنهم ديونهم بالغة ما بلغت، فقد دخل على محمد بن أسامة ابن زيد فى مرضه، فجعل يبكى. فقال: ما شأنك؟ قال: على دين. قال: ما هو؟ قال: خمسة عشر ألفًا قال: فهو على.

وهذا دليل آخر على حرص الإمام على مكان ابن أسامة بن زيد من الجنة بحيث لا يعكره الدَّين الذى لا يكفَّر إلا بالشهادة، ودليل على دناءة شأن الدنيا عند الإمام ببذله هذا القدر الهائل من المال عن أخيه المؤمن.

ولم يكن يقبل أن يستغل منصبه فى المجتمع فى قبول عطايا الخليفة، فعطاؤه المقرر له بين أهل البيت وحده هو الذى كان يقبله دون منّ من الخلافة، فهو حق كسائر الحقوق، فإذا ما اقترض من الخليفة شيئاً فإنه كان يعده له ليرده مشكوراً.

قال عبد الله بن على بن الحسين: لما قتل الحسين قال مروان لأبى: إن أباك كان سألنى أربعة آلاف دينار فلم تكن حاضرة عندى، وهى اليوم عندى مستيسرة، فإن أردت فخذها. فأخذها أبى، فلم يكلمه أحد من بنى مروان فيها حتى قام هشام فقال لأبى: ما فعل حقنا قبلكم؟ قال: موفر مشكور. قال: فهو لك.

وقمة جوده وسخائه صنيعه الذى كان يصنع مع عامة الناس من أهل المدينة.

قال ابن إسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون، ولا من يعطيهم، فلما مات زين العابدين فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به.

ولما مات وجدوا بظهره آثارا سوداء من أثر حمل جرب الطعام إلى بيوت الأرامل والمساكين.

وقالوا: إنه كان يعول بهذه الطريقة مائة بيت فى المدينة. وكان حريصاً على إخفاء صدقته على هذه الصورة فى جنح الظلام لهدف يراه ويؤمن به أوضحه فى قوله:

« صدقة الليل (وفى رواية: السر) تطفئ غضب الرب، وتنور القبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة ».

وقد تواترت الروايات وتعددت وجوهها فى صدقاته الليلية هذه.

قال ابن عائشة: ما فقدت صدقة السر حتى مات على بن الحسين.

وروى الطبرانى عن عمر بن الحارث: لما مات على بن الحسين وجدوا بظهره آثارا سوداء، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: كان يحمل جرب الدقيق بالليل يعطيها الفقراء.

ولم يكن يخشى الفقر من كثرة العطاء والبذل، وإنما كان يخشى الفقر من فضل الله عليه وموالاته إياه، وكان من دعائه فى ذلك:

«اللهم ارزقنى موالاة من كثرت عليه رزقك بما وسعت عليه من فضلك».

وكان لا يرى أخذ الأجر على العلم، ويعتبره من أبواب حب الدنيا، فيقول: «من كتم علماً أو أخذ عليه أجرا أو رفدا فلا ينفعه أبداً».

هذا منهاج الإمام فى مسألة المال والجاه، بذل وزهد وبراءة من الحب والحرص، فما أثر هذا المنهاج فى بناء المجتمع فى عصره وبعد عصره؟ وما الأخطار التى تتهدد المجتمع من جراء إهماله؟

والقضية هى نفس القضية الرئيسية التى ثارت بين على رضى الله عنه وأهل بيته وبين بنى أمية، أى بين الإمام على ومعاوية بن أبى سفيان من حيث استعداد كل منهما لطبائع معينة تصلح فى أحدهما لزعامة دين، وتصلح فى الآخر لزعامة زمنية.

فالإمام ونبوه منذ حداثتهم زهاد لا يعقدون قلوبهم على حب الدنيا، والإمام هو الذى امتدحه الله تعالى فى كتابه الكريم على خليقة البذل والإيثار فقال تعالى: **﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾** [الإنسان: ٨، ٩]. وعلى هذا سار بنوه من بعده، وبهذا أمر الإسلام، فكانوا أحق الناس وأصلحهم لزعامة دين يسوس دولة.

ومعاوية مع كونه صحابيًا كان يميل بطبعه إلى الجاه والملك والعظمة، والظهور بمظاهر الملوك المجاورين لجزيرة العرب، حتى لقد كان يحاول أن يستصدر من عمر بن الخطاب رضى الله عنه موافقة على الظهور بمظهر الأبهة فى مواجهة الروم، وكان يحتج لاقتراحه هذا بحجج حيرت الخليفة فقال له أخيراً: «لا آمرك ولا أنهاك».

ورد الخليفة عمر رضى الله عنه على معاوية على هذه الصورة ليس جهلاً من عمر بما يصلح لسياسة الدولة فى الإسلام، وهو إمام أهل الاجتهاد المكلّم، الذى وافق القرآن الكريم على رأيه.

فهو لا ينهى معاوية عن مسلكه باعتباره مسلكا يمكن أن يرقى بدولة الإسلام ولكن

مع وال لا يهيم بالأبهة والعظمة ولا يتعشقهما، ولم يأمر معاوية بتنفيذ مقترحاته لأنه كبنى أمية كان هاويا للأبهة والعظمة ومظاهر الملك والسلطان.

وعمر نفسه كان يرى العظمة والعزة فى الإسلام نفسه، ولذلك لما زار جبهة القتال وكان عليها أبو عبيدة، شمر عمر عن ساقيه وخاض الماء إلى القائد، ولما لفت القائد نظره إلى أن العدو بإزائه ولا يحسن أن يرى أمير دولة الإسلام يخوض الماء بقدميه قال له: «دعنا منك، نحن قوم قد أعزنا الإسلام».

وعلى هذه السياسة مضى الإمام على كرم الله وجهه، لا يرى عزا إلا فى الإسلام، ولا جاهاً ولا سلطانا إلا فى مخالفة ما كان عليه ملوك الامم فى عصره، وإثيارا لتواضع والزهد والبذل، على الكبرياء وجمع المال والاستكثار منه.

على أن الإسلام باعتباره ختام الرسالات السماوية، يحمل فى ثنايا أصوله أمرًا صريحاً بمواصلة القتال والجهاد، والعمل على سيادته على العالم كله على مدى العصور والأزمان.

وهذه المهمة الشاقة العظمى لابد أن تقترن بالوسائل التى تجعلها أمرا ميسورا يتسارع الناس إليه، ولا يساقون إليه سوق على كره. وكانت تلك الوسائل المقررة شرعا هى:

١- ضمان الكفاية من وسائل الانتفاع لجميع أبناء الأمة.

٢- أن يكون هذا الضمان بطريقة تحفظ كرامة المسلم، ولا تذله، حتى تبقى حالته المعنوية على درجة من القوة والكفاية للحرب.

٣- توثيق روابط الحب بين أبناء الإسلام جميعاً حتى يصيروا كالجسد الواحد.

٤- العمل على قمع خلق التجبر الذى يقف حائلا دون اهدف إيجاد حالات من العداء الناشىء من استغلال المتجبر للفقير أو لعرضه، أو تسخيره فى أعمال غير مشروعة للحصول على الكفاية من الرزق.

٥- وأولاً وأخيراً: وجوب الجهاد بالمال والنفس والفكر وكل القوى البشرية فى سبيل الله.

ولضمان نجاح هذه المهمة السامية شرعت الزكاة حقا للفقير لا منا وأذى من دافعها، وشرعت الصدقات الحرة بآدابها التى تحفظ كرامة المسلم، وشرع الزهد فى الدنيا وإيثار الآخرة عليها، والمساواة بين الجميع فى الحقوق مع الاحتفاظ بمقادير المواهب المتفوقة

للأعمال القيادية العامة.

وكان الزهد والتقلل من وسائل الانتفاع وسيلة لتحقيق الجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام في أي زمان مستقبل قد يحتاج المسلمون فيه إلى جهود مالية ضخمة كما هو الحال في عصرنا الحاضر ولكن بكل أسف نحتاج إليه لصد طامع مغير أو محتل لأرض المسلمين بالفعل لا لنشر الإسلام في ربوع أخرى كما أمر الله، وما كان الأصل الذي ترجع إليه أسباب الانتكاس إلا الحرص على المال وحبسه عن وجوهه المشروعة، واستبداد النفس بالمسلم لإنفاقه في وجهه غير مشروعة من الشهوات والملذات.

ولقد بدأ انتكاس المسلمين عن طريقهم منذ عهد بني أمية. ويكفينا في هذا الصدد أن نورد خبراء جاء في «أسد الغابة». وغيره من المراجع يقول: إن قاتل الإمام الحسين جاء إلى فسطاط أمير الجيش وهو عمر بن سعد بن أبي وقاص، فوقف عليه وأنشد:

أو قر ركابي فضة وذهبا ... فقد قتلت السيد المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال له عمر بن سعد: ويحك، تقول هذا الكلام؟ لو سمعك زياد لقتلك. أشهد أنك مجنون، وحذفه بقضيب كان معه.

وعمر بن سعد هذا الذي استعظم مقالة سفان بن أنس الذي اشترك في قتل الحسين حينما سمع منه هذا الشعر، هو نفسه الذي أمر نفرا فركبوا خيولهم وأوطأوها الحسين الشهيد.

وثار زيد بن أرقم حينما رأى ابن زياد ينكت بين شفتي الحين بقضيب في يده وخرج يقول: أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم قتلتم ابن فاطمة، وأمرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم.

على هذه الصورة من الاضطراب واختلال القيم بدأ الناس طريقهم في عصر بني أمية، وغني عن البيان أن التيار قد اجترف أبناء كبار الصحابة من أمثال عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي ازدوج تفكيره هو الآخر على الصورة التي نراها في القصة السابقة.

أصبح المال مطلوبا بحيث يذبح في سبيله السادة خير الناس أما وأبا بعد أن كان مطلوبا لإستخدامه في ذبح أهل الكفر أو المتطاولين على خير الناس أما وأبا. ولابد أن يتبع هذا الجشع إلى المال شح به، وحبس له عن مصارفه المشروعة، وتوجيهه إلى مصارف

غير مشروعة، ومن هنا بدأ تهديد أصل من أصول الإسلام هو: الجهاد بالمال فى سبيل الله، وإذا انعقد القلب على حب المال فإن الجهاد بالنفس فى سبيل الله أصبح هو الآخر هدفا للتهديد بالانهيار.

وإذا شحت النفوس بالمال دب الحقد فى القلوب، وتعددت الوسائل المحرمة للوصول إليه، وأثرى البعض ثراء فاحشاً، ومن على الفقير بما يعطيه من سقط المتاع، وانحلت وحدة الأمة، وفقدت فاعليتها فى ميدان الجهاد المفروض.

من أجل ذلك كان لابد من منهج معارض، وأن تكون المعارضة بناءة تتبنى أصل الإسلام ولا تحيد عنه إلى الباطل السائد، وكان زعماء المعارضة دائماً هم آل البيت النبوي ومن سار على نهجهم مدى الأيام.

أما أن المعارضة لم تستطع فى ذلك العصر كبح النفوس الحافحة وردها إلى الصواب بحيث يعود الإسلام ودولة الإسلام الى الأصل الذى كانت عليه فى الصدر الأول، فما ذلك إلا لأن من المعلوم للجميع ان الفساد أسرع وأشد سيطرة على النفوس من الخير، وأن العودة بالنفوس إلى أصلها يحتاج إلى وقت طويل، وقرون عديدة حتى يمكن أن يقتنع العالم الإسلامى بصورة جماعية بفساد المنهاج الذى كان عليه، وبضرورة العودة إلى الأصل، والتخلى عن هوى النفس السائد.

فمن غير المعقول أن يتم إقناع المجتمع كله فى تلك الفتنة العمياء، ولكن الذى نجح فيه الإمام ومن سار على نهجه هو تكوين مدرسة واعية لمنهج المعارضة عميقة الفقة لأصول الإسلام وأهدافه المحلية والعالمية، تنقل ذلك المنهج إلى الطلاب على مدى الزمن، حتى لا يكون عصر من العصور عاطلاً من المعارضة البناءة، وهو ما حدث بالفعل.

لقد تناقل العلماء والمعلمون مبادئ المعارضة حتى وصلنا الإسلام سليما من كل زيغ، واضح الاهداف، وانكمشت على مدى هذا الزمان الطويل بفضل تلك المعارضة كل المذاهب الدخيلة التى كانت تعمل جاهدة فى القضاء على العقيدة ذاتها، ولم يبق منها الآن غير أو شاب تتضاء بمرور الزمن ليحل محلها دين الله القيم.

فما من بلد من بلاد الإسلام الآن إلا وصوت المعارضة يرتفع بين أبنائه مهيبا بالمسلمين أن يعودوا إلى أهل سلوكهم الذى قامت عليه حضارتهم. وقد جمعت المعارضة أصل السنة والفقهاء السنيين، ومعتدلى الصوفية فى إطار واحد من الدعوة الجادة للعودة إلى السلوك الأول للمسلمين.

ولئن كان الصوفية باعتبارهم أول من حمل رسالة الزهد وتوجيه المال إلى وجوهه المشروعة، وكبح جماح النفوس قد شملهم التطرف بعض الزمن، واتجهوا إلى التصوف النظرى، وأبدعوا الحديث عن المقامات والدرجات فى الوقت الذى أهملوها سلوكاً، وخلطوا المقامات بالخرافات أحيانا، وحاول منحرفوهم الحجر على العقول لئلا تعترض سلوكا فاسداً، لئن كان ذلك كذلك فإن دعوة جادة تأخذ مكانها الآن إلى تجريد التصوف من تلك الشوائب، وعرضه نقيا واضحاً سليماً على النحو الذى نقله آل البيت عن آبائهم عن جدهم ﷺ.

هذا هو فضل الإمام السجاد، وفضل أبنائه، وفضل أبناء عمه الإمام الحسن، وفضل العقلاء من طلابهم ومريديهم لا يرتاب فيه اثنان.

ولو أنهم اندمجوا فيما ساد فى عصرهم من أهواء لما كانت بلاد الإسلام على الوضع الذى نراه الآن.

إن وضع أمم الإسلام لا يرضى المؤمن الحق، ولكن هذا التدهور ما كان إلا بفعل الإغراء بالدنيا، وانعقاد القلوب على حبها، ذلك السلوك الذى أسسه بنو أمية عن قصد أو عن غير قصد، فالله أعلم، ولو لم تكن تعاليم الإسلام الحق قد وصلتنا على أيدى أهل البيت وبقية الصحابة كان الحال أسوأ وأسوأ، ولكانت سائر بلاد الإسلام قد لقيت مصير أسبانيا الأموية الأساس، والتى اندثر فيها الإسلام تماماً.

نعم، إننا لم نصل الآن إلى درجة السلوك العملى للمسلمين الأوائل، ولكننا وصلنا إلى ظهور أصوات كثيرة تدعو إليه، وتؤكد جدواه فى ميدان السياسة الإسلامية العالمية المفروضة على المسلمين. ولازلنا نجد فى القلوب غضاضة من قبول مبدأ البساطة فى الحياة إلى أقصى حد ممكن، بحيث يكون المؤمن نظيفا فى هيأته ومسكنه ومأكله بأبسط ما يمكن من التكاليف، لا سيما وأن انحلال الأمم الأوروبية يغزونا بمختلف البدع التى تثقل الكواهل، وتستنزف الأموال فى غير وجوهها.

ومع ذلك فإن الدعوات المعارضة تشتد وتتآزر مع النكبات التى يضرب الله تعالى بها أمم الإسلام، وسيكون لنا إن شاء الله من ذلك كله درساً قاسيا يصلنا بأصول الإسلام الناجمة فى بناء الحضارة.

ولا يجوز أن يحتج راغب فى الترف بأن الإمام زين العابدين والكثير من آل البيت كانوا يلبسون فاخر الثياب، فهذا احتجاج باطل.

فقد كان زين العابدين كما رأينا يبيع تلك الثياب الفاخرة بعد الشتاء، ويتصدق بثمنها على الفقراء. فهل هو ترف آخر أن يبيع الثياب ليشترى بدلاً منها فى عامه القابل؟ أم إن هناك سراً فى هذا السلوك يخدم الهدف الذى تبناه وخطط له تخطيطاً دقيقا؟

الحق أن السجاد وآل البيت كان لهم محبون قد شغفوا بهم وهاموا حتى دفعهم الحب إلى إخراجهم عن نطاق البشر، وكان جل هؤلاء الغلاة من غير العرب، وكانوا على جانب من الثراء، فلا شك فى أن ثوب الإمام السجاد الذى اشتراه بخمسين دينارا كان يباع بأضعاف هذا الثمن التماسا لبركته، ونحن لا نزال نرى فى عصرنا كيف أن آثار العظماء، وأسماء أهل الفن تبلغ أسعارا خيالية فى الأسواق، والإنسان هو الإنسان، ولازالت شعرات قالوا: إنها من شعر رسول الله ﷺ فى الهند هددت بحرب دموية حين سرقها بعض الناس.

إذن هى محاولة لإخراج المال من الخزائن للعودة بها على مستحقيها ولكن بوسيلة أخرى إذ لم تجد وسيلة الأمر والنهى المقررة فى الإسلام.

لم يكن الإمام مترفا ولا شحيحا، بل كان المثل الأعلى للزهد فى الدنيا، كما كان المثل الأعلى للجود بها على كل طالب محتاج، وكان إذا رأى السائل قام إليه فأعطاه وقال: «إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل» ثم يومى بكفيه.

وفى مجال الكرم كان يسوى بين الصغير والكبير فيه، وروى نصر بن أوس فى ذلك: أنه كان يدخل يده فى التمر فيعطى الكبير والمولود سواء.

السَّجَّاد

لابد أن يكتمل منهج الإمام زين العابدين الذى هدف منه إلى البقاء على الإسلام النبوى، وإلى الرغبة فى وصوله كما هو إلى الأجيال القابلة من المسلمين.

والإسلام ليس عمرانا فى مجال المادة التى تخدم شريعة الجهاد حسب، بل هو عمران روحى يدوم المسلم به على صلته بربه اتصالاً روحياً، بحيث يتخلى بعض الوقت عن كل شىء فى الوجود إلا عن مناجاته لربه والانخلاع من أوضار الفكر المادى حتى ولو كان هادفاً إلى خدمة الإسلام.

والجانب الروحى فى الإسلام يعتبر بمثابة تجديد للوعى الدينى الأصيل خشيه أن تعدو عليه شئون الحياة فتحوله إلى نظريات يجيد المسلم الكلام عنها، ولا يجيد تطبيقها. وهذا التحديد الدائم للوعى الدينى فى الواقع هو الحافز العميق فى الإنسان، الذى يدفع به إلى تتبع آداب الإسلام الأخرى، وتطبيق دستوره المادى فى عزم وإخلاص بدافع الحال الذى يحسه المؤمن بعد كل تجربة روحية عبادية.

وهذا الحال عبارة عن : تذوق خاص لأعمال العبادة، وإحساس بما يفيض من الغيب على العابد من فيض لا يخضع فى التعبير عنه لقيود اللغة، لاختلاف ألوانه باختلاف العبادات .ولكنه على أى موجات من الرضى أو الحبور، أو الشهود القلبى تدفع الإنسان إلى الاستزادة من العمل، ومحاولة تخليصه من كل آفة حتى يصل العابد إلى الحال مصفى من كل كدر، ويصبح «مقاماً» وملكة من ملكات المؤمن ينعكس نورا فى قلبه، وذكاء فى عقله، وعلما يفيض على القلب بلا أستاذ، وفقها عميقاً فى الآفاق والأنفس تقصر دونه العبارات، وأخيرا قوة عارمة فى الباطن والظاهر لا تدانيها قوة.

قوة فى ذات الإنسان، وقوة فى تسديد الدعاء والوصول به إلى الله تعالى خالصا لا تعوقه عن الإجابة آفة عائقة. ولذلك كله اختار الإمام زين العابدين نقش خاتمه «القوة لله جميعا».

وفى هذا الاختيار براءة من الحول والقوة، وتوجه كلى إلى الله فى كل الأمور يتأكد معها إجابة الدعاء الخالص الذى تزول به حينئذ الجبال كما جاء فى السنة، والذى تسرى بركاته إلى كل من دعابه، لأنه كان من قلب فياض يحمل الكلمات من روحه ما يؤثر به

فى قلوب الآخرين دون شك. وسنشير إلى نموذج من ذلك أثناء هذا الفصل إن شاء الله.

أطلقو على الإمام على بن الحسين ألقابا كلها تشير إلى أنه كان قمة فى الوعى الدينى الأصيل كما كان قمة فى منهاجه الذى تبناه فى الإصلاح المادى.

سموه «زين العابدين»، وسموه «السجاد». وما ذاك إلا لأنه اختار الصلاة والسجود يغرق روحه فيها، ويغترف من معين فيضها ما شاء الله حتى صار بحق زين العابدين على الإطلاق.

لم يؤثر عنه كثرة الصيام، ولا تشجيع على القتال، ولكنه اختار الصلاة لأنها جماع العبادات كلها، لا توجد عبادة إلا وفى الصلاة منها شيء. فيها من الصوم حقيقته ببطلانها مع الطعام، ومعناه ينقصانها مع التفكير فى غيرها وغير ما فيها من مناجاة وأذكار، وفيها من الحج التوجه إلى البيت، ووحدة القصد، وفيها من الجهاد جهاد النفس والعقل والقلب على التخلى عن كل شيء فى الوجود، وفيها من العلم أنه ليس لك منها إلا ما عقلت وفقهت من معانى أذكارها وحركاتها، وفيها من الزكاة حرمان البدن من النوم والراحة فى سبيل الله.

والصلاة أعظم العبادات قدراً على الإطلاق، فما من عبادة إلا ويجوز أداؤها مع الحركة والكلام والتحرر الجسدى إلا هى فلا يجوز فيها كلام ولا حركة ولا مزاولة أى شأن من شئون الحياة. ولذلك اختارها الإمام زين العابدين مجالاً حياً تحلق فيه روحه ما شاء الله لها من التحليق، وتغترف منها ما شاءت من معين الحب الذى لا ينضب.

وتجمع الروايات على أنه كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة. ونرى أن العدد المروى ما قصد به إلا أنه كان يكثر من نافعة الصلاة بما لا يعهد فى غيره من العباد وأهل الفضل، لأن هذا العدد من الركعات يمكن أداؤه فى أربع وعشرين ساعة بواقع دقيقة ونصف دقيقة تقريبا للركعة الواحدة. وقد كان الإمام يجلس للناس، ويشتغل بالعلم، ويرعى أهل بيته وأبناء عمه، وينام، ويطعم، كما أنه ليس من دأبه الإسراع فى الصلاة، بل كانت له سجدات طوال يغرق روحه فيها بالمناجاة والدعاء.

فعلى أى حال لقد كان الإمام متفوقا على غيره فى نوافل الصلاة وقيام الليل، معينا بالصلاة عناية خاصة، حتى لقد كان يتتبع الصغار من آل البيت ويحثهم على الصلاة إذا بلغوا السابعة من العمر.

قال ابنه الحسين بن على: دخل علينا على بن الحسين وأنا وجعفر (حفيده) نلعب

فى حائط (بستان) فقال أبى لمحمد بن على: كم مر على جعفر؟ (يعنى من العمر) قال: سبع سنين. قال: فمروه بالصلاة.

هو يريد أن ينشأ أهل البيت على الصلاة منذ الصغر ليدركوا ما فيها من صقال للنفس، وإبراز لجوهر الروح ، ووعي كامل للإسلام لا سيما إذا كانت من صلاة الليل التى أمر النبى ﷺ بها الليل كله إلا قليلاً ، بحيث لا يقل وقت صلاة الليل عن نصف الليل إلا قليلاً، ويزاد على ذلك حسب الاستطاعة، قال تعالى: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ ﴾ [المزمل: ٢، ٣، ٤].

ولأمر ما كانت صلاة الليل أكثر الصلاة بركة، وأصفاها مناجاة، وأجملها عائدة على العقل والروح، بل وعلى الشكل العام للإنسان، حتى لقد أفردها عباد السلف بالعناية، وتسابقوا إليها، واستكثروا منها، وقالوا فى تعليل الجمال الفائض على القلب منها الكثير، وجاء فى السنة قدر كبير من الأحاديث التى تحث عليها، وتصور ثوابها وفوائدها بما يدفع الإنسان إليها بقلبه وروحه وكل أحاسيسه.

ولشغف الإمام زين العابدين بالصلاة شغف كذلك بالمناجاة لله تعالى فى المواطن المباركة كالكعبة، وعند السجود، وله فى تلك المناجاة أساليب تنم عن روح صوفية رفيعة وذوق فياض جميل وإخلاص لا نجد له نظيرا إلا بين أفراد قلائل من عباد المسلمين.

ولشدة إخلاصه فى مناجاته تلك كانت بركاتها تسرى كما قلنا إلى كل من قلدها، وناجى ربه بها محاولا أن يصل إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من الإخلاص فيها.

قال طاووس بن كيسان: سمعته وهو ساجد عند الحجر يقول:

«عبيدك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك».

قال طاووس: فوالله ما دعوت الله بها فى كرب قط إلا كشفت عنى».

ولقيه الحسن البصرى فى الكعبة، وكان زين العابدين ملثما يبكى ويتضرع وينشد:

ألا أيها المأمول فى كل حاجة — شكوت إليك الضر فارحم شكايتى

ألا يارجائى أنت كاشف كربتى — فهب لى ذنوبى كلها واقصد حاجتى

فإن إليك القصد فى كل حاجة — وأنت غياث الطالبين وغياتى

قال الحسن: فقلت: يا سلالة النبوة، ما هذه المناجاة والبكاء وأنت فى أهل البيت؟

وقال الله عز وجل : «ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا». قال : «دع يا بن أبى الحسن. خلقت الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا، وخلقت النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا، وقال ﷺ : إيتونى بأعمالكم لا بأنسابكم».

وقال محمد بن كعب القرظى : كنت فى مسجد الكوفة بعض الليالى. فأتى على بن الحسين زين العابدين رضى الله عنه فى نصف الليل حتى بلغ باب المسجد وهو يقول فى بعض مناجاته :

«يا حبيبى وقرة عينى، غلقت الملوك أبوابها، وطافت عليها حراسها، وبابك مفتوح». ثم دخل المسجد وصلى.

ولا شك أن هذا اللقاء بين محمد بن كعب والإمام قد كان فى غير الكوفة، لأنه لم يذهب إلى الكوفة فيما نعرف، ولا سبيل إلى إنكار الواقعة لهذا الخطأ، فالأسلوب أسلوب الإمام الرقيق الذى تميز به فى مناجاته.

ومن مناجاته أيضاً : «يا موضع كل شكوى، وسامع كل نجوى، يا شافى كل بلوى، يا عالم كل خفية، وياكاشف ما تشاء من كل بلية، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، وضعفت قوته، وقلت حيلته، دعاء الغريب الفقير الذى لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

وكان يقول فى سجوده : «اللهم إن كنت عصيتك فإنى قد أطعتك فى أحب الأشياء إليك وهو الإيمان بك منًّا منك، لا منًّا عليك».

ونحن نلاحظ فى دعاء الإمام كما ترى مسحة عن الاعتراف بالذنب، ومسحة من الحاجة الملحة إلى الله تعالى فى صورة لا تقنع إلا به، وهذه المسحة هى التى سماها الصوفية فيما بعد بالفقر، وأفردوا لها البحوث، وشققوا فيها الكلام.

ولقد ورد الفقر فى القرآن الكريم فى مواضع عدة أهما هنا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر : ١٥].

والفقر فى الآية يشمل الفقر المادى، والفقر المعنوى على السواء : والإمام يلجأ إلى الله لجوء من اشتدت فاقته، وأحاط به الكرب فليس له إلا هو سبحانه : وإنما يعنى بذلك الفقر المعنوى الذى تحدث عنه الصوفية.

وهذا النوع من الفقر أثر من آثار إقامة الصلاة على وجهها الصحيح، والتسامى بالروح

من خلالها إلى الأفق الأعلى الذى يرتد الإنسان بعد التحليق فى أجوائه حسيرا اكسيرا عارفا بقدرة كإنسان عاجز بسيط محتاج مهما أوتى من المال والجاه والقوة على مقارعة المشكلات.

فالفقر الذى كان يشعر به الإمام هو: الإحساس بالحاجة إلى الله عن يقين وصدق فى كل الحركات والسكنات، بحيث يبطل حول الإنسان وقوته، وتعدد الأعمال الإنسانية كلها بما فيها من جهد وصبر إلى الله، فهو سبحانه الذى وفق للعمل، وهو الذى أخذ بالناصية ركوعا وسجودا وقياما ، وهو الفعال فى كل شىء بجهد عبده الذى منحه إياه.

فإذا استقر هذا الشعور- وهو من ثمرات الصلاة القائمة ظاهرا وباطنا - آمن الإنسان بأنه عاجز لولا قوة الله تؤازره، وبأنه مذنب لو لا غفران الله يظله، وبأنه مقصر لولا رحمة الله تتغمده، وهذا هو الفقر الحقيقى السائد فى مناجاة الإمام، ومنه كان الشعور بالذنب الذى يدمن زين العابدين الابتهال إلى الله فى غفرانه.

ليس ذنبا ناشئا عن ارتكاب كبيرة، أو مقارفة مكروه، ولكنه شعور الفقير الحق إلى الله بأنه لم يفعل شيئاً يؤدى به حق الله، ولا حق الشكر على ما وفق من عمل.

وهو مع كل ذلك الخوف والإشفاق من شبهة الاستقلال بالعمل، أو استعذاب الحال الفائض أثناءه أو بعده، أو عدم مطابقة الظاهر للباطن فى أداء الأعمال، وهو ما أشفق منه الإمام السجاد حين كان يقول:

«اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لوائح العيون غلانيتى، وأن تقبح فى خفيات العيون سريرتى» .

ولقد عبر الإمام عن شعوره بالذنب الخفى الذى هو من ثمار مقام الفقر حين قال للرجل الذى وقع فيه وأساء إليه : «يا أخى، ما ستر الله عنك من عيوبنا أكثر». ولم يكن للإمام عيوب مما يسميها الناس عيوبا قد سترها عن الناس إلا تلك المشاعر السامية التى تدخل فى باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

ولعل شعوره بالذنب كان كما قلنا قبلا لأنه لا يستطيع القيام بحق الجهاد والنصرة للإسلام إلى فى ذلك النطاق الذى غير حياته كلها يعمل فيه.

على أن المشاعر التى كانت سائدة فى عصره كانت تثق فى المال والجاه ما لا تثق فيما عند الله من عون أو ثواب. وحتى الخلفاء أنفسهم قد اتسمت جميع أعمالهم بالمادية

يقيسون الأمور بها، ويعتبرونها مقياسا للعظمة فى دولة الإسلام.

كان المجتمع على الصورة التى أفصح عنها الحارث بن أسد المحاسبى بعد عصر الإمام حين قال: «لو قيل لأحدهم: هل لكم فى الدنيا حراما، وتحاسبون عليها فى الآخرة لرضوا».

كانوا يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، فأكثر الإمام من المناجاة، واتسمت مناجاته دائما بإعلان الفقر إلى الله، وبالاعتراف: بالذنب، وبأنه لا غنى إلا بإذنه، وكان ذلك فى مواجهة ما زاع فى عصره من قيم تخالف روح الإسلام وجوهره.

آداب سلوكية

ناس لا يصلحون للصداقة

كان الإمام رضى الله عنه خبيرا بأخلاق الناس خبرة عميقة، عارفا بمن يصلحون للصداقة ومن لا يصلحون. ولم يدع إلى مقاطعة الناس والهرب منهم كما دعا من بعده من الزهاد والعباد المصلحين، لأن الإنسان لم يمكن بعد قد بلغ درجة من الشراسة فى الفساد ينبغى معها الحذر من الجميع كالحذر من السبع الضارى كما يقول إبراهيم بن أدهم.

وقد اكتفى الإمام زين العابدين بالتحذير من أنواع معينة من الناس:

وأول الأنواع التى حذر من صحبتهم: الفاسق، والفاسق هو الخارج عن دين الله، المجاهر بالعصيان، المستعذب له، وقد علل خطورته بأنه «يبيعك بأكلة وأقل منها، يطمع فيها ثم لا يجدها». فالفاسق يتفق فى الأخلاق والطبائع مع «المدمنين» والمتاجرين بالأعراض فى عصرنا الحاضر، وهذه الفئات كلها تصل إلى حال من الانحلال الخلقى تفقد معه الشعور بحقوق الروابط العائلية والاجتماعية بل والأبوية كذلك، لا يفكرون إلا فى الشهوات المتسلطة، والإدمان الملحّ.

والفسوق بأنواعه الأخرى يتفق مع تلك الأنواع فى موت الضمير، وعدم الشعور بالمسئولية ولا بالتزام، ولذلك كثيرا ما تطالعنا الصحف بالمعتدين على آبائهم أو أمهاتهم أو إخواتهم فى سبيل امرأة، أو فى سبيل إلحاح الإدمان على مخدر، أو رغبة فى السلب والنهب.

تلك خلائق الفاسقين دائما فى كل عصر تتركز فى سيادة مذهب المنفعة الشخصية واستباحة الوسائل إليها، ثم الغباء فى تقدير الظروف، حتى ليضحى الفاسق أولاً بالروابط المقدسة طمعاً فى سراب ثم لا يجده شيئا بعد ذلك.

وثانى الأنواع التى حذر زين العابدين من صحبتهم: الكاذب، وقد علل رداءة هذا النوع من الناس بأنه «كالسراب يقرب منك البعيد، ويباعد منك القريب».

والذين جربوا معاشرة الكذابين يدركون مدى الإثارة التى تحدثها كذباتهم حينما

يقطعون شوطا كبيراً وراء السراب الذى يتراءى لهم منهم ثم لا يجدونه شيئا. كما أن تقريب البعيد ومباعدة القريب فيها مضيعة للوقت فيما لا يجدى شيئاً، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وثالث الأنواع التى حذر منها هم: أهل الحمق، فقد قال لابنه: «ولا تصحب الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك».

والأحمق هو: السخيف العقل الغبى، السيء فى تصرفاته، والضرر الذى يصيب صاحبه منه عن غير قصد معروف مشهور فى العلاقات الاجتماعية للجميع. ولكن الجديد هنا: أنه لا يدرك هذه الأضرار إلا ذكى المعى يفرق بين الأحمق وغير الأحمق، أما مجتمع الحمقى فلا يكاد يبين بينهم حمق من ذكاء.

ورابع الأنواع: قاطع الرحم، ويقول لابنه عنه: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

فصحبة الملعون من الله حب لما كره الله، ومجلبة للعنة بهذه المخالفة الواضحة لمحاب الله، على أن قاطع الرحم مع ذلك أسرع إلى مقاطعة غير ذوى الرحم، وأقرب إلى التقلب، وأبعد عن مبدأ النصح المقرر في الإسلام كدليل على صدق الإيمان.

لا تبالغ فى المدح

المدح فى ذاته أمر مكروه فى الإسلام إلا إن كان صادقا، وكان الممدوح ممن قويت قلوبهم فلم يغرهم الثناء، ولم يخرجوا به عن دائرة الاستقامة إلى دائرة العجب والخيلاء.

وهذا النوع القوى قليل بين أهل الفضل، ولذلك كان واجباً أن تسد الذرائع فلا يلجأ الإنسان إلى مدح غيره حتى لا يفتح له باباً من الشر كان فى غنى عنه.

ولقد أفاض الحارث بن أسد المحاسبى فى الحديث عن أخطار المدح فى كتاب «الوصايا» وانتهى إلى أنه قل من ينجو من عطب المدح، وقرر أنه لو استوى المادح والذام فى نفس إنسان فإنه قد لا يسلم من شهوة خفية تدفعه إلى السرور بمجالسة المادح، والنفور من الذام رغم التسوية بينهما فى المعاملة فى ظاهر الحال.

ولقد أشار الرسول ﷺ إلى خطورة المدح على قلوب السالكين إلى الله فقال للمادح أخاه بظهر الغيب «قطعت ظهر أخيك». وقال فى مناسبة أخرى: «لو سمعها ما أفلح».

وقال محذرا من المداحين : (احثوا فى وجوه المداحين التراب) .

فالمادح شيطان يبعث الغرور فى نفس الإنسان، والغرور باب من أبواب الفشل فى السلوك كما قال رسول الله ﷺ .

وزين العابدين رضى الله عنه قد لجأ إلى وسيلة بسيطة للتنفير من المادح غيره بما لا يعلم من الخير، المبالغ فى إضفاء خلال الصلاح على صاحبه، وقوام هذه الوسيلة هو ما يلحق الممدوح على هذه الصفة من ذم مقابل للمدح بما لا يعلم فى الممدوح من خلال الشر . قال الإمام: (لا يقول رجل فى رجل من الخير ما لا يعلم، إلا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم) .

لا تصحب غيرك إلا على طاعة الله

الحب فى الله والصحبة فيه، والبغض لله والفرقة من أجله هو السلوك الإسلامى الصحيح، العائد بالخير على الإنسان، والمباعد له من الانحراف أو مظنة الانحراف .

فالصحبة لمآرب النفس، ولمصالح الدنيا أمر ممقوت فى الدين والعرف على السواء، فهذا النوع هو الوصولى الانتهازى الذى تنفر منه المجتمعات وتزدريه العيون والقلوب .

والصحبة على المعصية أشد مقتا عند الله، ولا حجة لمن يقول: أصحب العصاة لآمرهم وأنهاهم، فالأمر والنهى قد يكونان على غير صحبة وصداقة، والنفس سريعة القبول للعدوى، والمجاملات المألوفة بين العصاة عامل من عوامل لين القلوب بعضها إلى بعض، ومن ثم يندمج الجميع فى المعصية على وجه من الوجوه، إما بمقارنتها بالفعل، وإما بالسكوت عن النهى، وإما باستلذاذها فى القلب، وكل ذلك تحول بالقلب عن وجهته التى شرعها له الله تعالى، إذ شرع الله تعالى للقلب أن يكون محلا لذكره، أو محلا للفكرة الداعية إلى ساعة، أو المنفرة من معصية، أو الكاشفة عن عظمة الله فيزداد بها الإيمان، أو الرافعة للحجب حتى يعاين الإنسان مواعيد الله من الثواب أو العقاب على وجه اليقين فيرجو أو يخاف .

وتحذير من صحبة العاصين لأى سبب من أسباب الصحبة يقول الإمام زين العابدين: (ما اصحاب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترق على غير طاعة) .

من أدب العلماء :

العلماء موازين الحق الموضوعة فى الأرض يهتدى الناس بهديهم فى ظلمات الفتن،

ويتلمسون أعلام الطريق إذا حاول طمسها فرد أو جماعة ممن لهم مآرب فى التضليل عن طريق الله.

وصلاح الأمة مرتبط أشد الارتباط بصلاح العلماء، وفسادها مرهون بفسادهم، وقد قال السلف فى ذلك الكثير، وشبهوا العلماء بالرأس، والرعية بالجسد، فإذا فسد الرأس فسد الجسد، وشبهوهم أحياناً أخرى بالطبيب يعالج المرضى فإذا مرض الطبيب فمن يداويه؟ ومن يداوى أولئك المرضى؟

ولقد ركز الإمام زين العابدين آفة العلم فى: الإغراق فى الضحك، وفى كتمه عن الناس، وفى أخذ الأجر عليه أو استخدامه لنيل الوفد والعطاء. فقال:

«من كتم علما، أو أخذ عليه أجرا، أو رفدا، فلا ينفعه أبداً».

وقال: «من ضحك ضحكة مجّ من العلم مجّة».

فكتم العلم صدّ عن سبيل الله بالامتناع عن إرشاد الناس إلى الطريق، ورضى بالباطل يسود فلا يسارع العلماء إلى دفعه والعمل على سيادة الحق عليه، وحجر على الناس أن يسارعوا إلى عمل الخير بعدم بيانه لهم، ودعوتهم إليه، ومحاولة خفية لابتزاز الدنيا من الناس ببذل العلم حينما يكتمه العلماء، ويحتاج الناس إليه.

وقد جرت سيرة العلماء الفضلاء من السلف على اعتبار العلم وبذله وتعليمه للناس عملا واجبا من صميم النصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم بحجزهم عن الشر، وهدايتهم إلى الخير، واعتبروا معاشهم أمراً منفصلا عن العلم، يسعون إليه بوسائلهم الخاصة، ولا يتخذون من العلم وسيلة لقضاء مصالح العلماء الدنيوية، ودفع الناس إلى إرفاقهم بالعطاء. وقد كان الثورى يعمل تاجراً لكسب عيشه، وكان إبراهيم بن أدهم يعمل فى حصاد القمح وحراسة البساتين لنفس الهدف، ولازالت أسماء عزيزة تطالعنا من التاريخ تكشف عن الحرف التي كانَ يزاولها العلماء لكسب عيشهم منفصلة عن العلم، كأبى على الدقاق، والقواريرى، والقفال.

وكان الإمام الأعظم أبو حنيفة تاجرا، وكذلك كان الشافعى شطراً من حياته، وكان ابن حنبل يعيش من غلة عقار بسيط وعلى هذا ما فضلاء السلف جميعا بلا استثناء.

ثم حدثت بدعة أخذ الأجرة على تعليم العلم بعد زين العابدين واضحة، مما يدل على وجودها خفية في عصره، أو إنها كانت مجرد رغبات تساور نفوس العلماء فى عصر كانت المادة تلعب دوراً هاما فى إفساد ضمائر الناس، وكان خلفاء بنى أمية فى حاجة إلى

المال، وكان حياتهم يتعللون بهم فى جمع المال من غير وجوهه، وكان للعلماء نصيب لقاء فتاواهم التى تبيح هذا العمل الآثم.

على أن أخذ الأجر على العلم الصحيح يزود العلماء بوسيلة الفساد التى تدفعهم فيما بعد إلى أخذ المال لإصدار فتاوى فاسدة تخدم بعض الأغراض التى يريدها أولو الأمر أو المحبون للمال.

وهكذا لا ينتفع العالم الكاتم لعلمه والآخذ عليه أجرا بعلمه، ومن ثم لا ينفع به غيره، فقد أصبح علمه مدخولا، كما أصبح معبرا للفاسد يعبر على فتاواه المفسدون فى الأرض إلى أهدافهم.

ومن هذا القول الذى أثر عن الإمام زين العابدين يمكن أن نشك فى نسبة أبيات نسبت إليه تقول:

إنى لأكتم من علمى جواهره	كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم فى هذا أبو حسن	إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
يارب جوهر علم لو أبرح به	لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمى	يرون أقبح ما يزتونه حسنا

فهو رجل صاحب رسالة بسيطة بساطة الرغبة فى إعادة المسلمين إلى سلوكهم الأول الذى كان عليه النبى ﷺ وصحابته، وليس من هذا المنهاج الإشارة إلى غرائب العلم وجواهره التى تدفع إلى البلبلة، وتغرى الناس باصطناع السرية التى عاش الإمام حياته حربا عليها، فلم تكن من صنيعه يوما من الأيام.

وهو لا يخشى ظهور الحق، ولا يخشى الفتنة من الحق، بل كان حياته كلها داعيا إلى الحق، يبصّر به الجاهل والعالم، وإنما ظهرت فكرة الخوين على الجهال من الفتنة بالحق فى عصر متأخر عن عصر زين العابدين، حينما تعمق الصوفية فى نظرياتهم، واغربوا فى القول، واعتبروا المعارف الناتجة عن هذا الإغراب سرا لا يجوز البوح به لجاهل خشية الفتنة عليه فى عقيدته، ولم يكن ذلك من عناصر فكر الإمام السجاد بحال.

وهذه السرية التى يخشاها قائل هذه الأبيات على العامة قد أشار إليها الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى - ومن العجيب أنه لم يشك فى نسبتها إلى السجاد - حيث قال فى الفتوحات المكية (١ / ٢٦٠): «ونبه بقوله: يعبد الوثنا، على مقصوده من تأويل قول النبى ﷺ: إن الله خلق آدم على صورته، بإعادة الضمير على الله تعالى، وهو من

بعض محتملاته.

ولقد بنى الصوفية على هذه الأبيات وعلى غيرها من الأقوال المنسوبة إلى أبى هريرة والإمام على غالب نظريات التصوف، وسنعرض لذلك بالتفصيل فى فصل مستقل إن شاء الله.

ويرى الإمام زين العابدين أن الضحك للعلماء يذهب بعلمهم، ويجردهم منه رويداً رويداً ما دام هناك إصرار عليه فيقول: «من ضحك ضحكة مجَ من العلم مجّة».

وهو يريد بالضحك القهقهة والإغراق، ولا يريد به الابتسام الدال على الإعجاب، أو على شعور بالسرور، فقد كان الابتسام من صنيع النبى ﷺ دون القهقهة التى تكشف عن خفة فى الطبيعة، وطيش فى الشعور، وليس ذلك من سمات العلماء ولا الأنبياء.

وإنما كان إدمان الضحك وسيلة لاستنزاف العلم لأن دواعيه غالبا ما تكون من خلائق أهل البطالة والسخرية، كما أن الإغراق لا يكون إلا عن تفاعل عميق مع هذا الباطل، والتفاعل العميق مع الباطل الساخر يحد من الرغبة فى الفقه العميق فى مسائل العلم التى لا تنمو إلا فى جو من الصمت والفكر، ومجانبة البطالة، والقرب من درجة التبتل فى محراب العلم والمعرفة.

فكل دفعة من الضحك تدفع معها قدرا من ملكة البحث العلمى إلى خارج القلب، لتحل مكانها نظرة عميقة تهدف إلى استكشاف ما فى حديث أهل البطالة من الإضحاك.

وإذا كانت دعوة زين العابدين للعلماء إلى الجدية فى الفكرة، وإلى هجران البطالة لم تكن قد اتخذت مكانها الحق فى عصره، فإن هناك من استجاب لها من كل قلبه، واندفع فى البكاء والتفكر فى الموت وفيما بعده كوسيلة لاستبقاء هذا الشعر الجاد بمسئولية العالم نحو علمه، ونحو صيانته من كل شبهة تخرجه عن قداسته، وعن رسالته فى هداية الآخرين.

وكان من مشاهير البكائين فى عصر زين العابدين: الحسن البصرى، ومن بعده مالك ابن دينار، ثم سفيان الثورى وسائر زهاد الكوفة من بعد، مما أبقى على جوهر السمت العلمى المراد من علماء الإسلام.

الفكر، والاعتبار بالموت

كان على بن الحسين إذا رآى الجنازة تمثل بالبيتين الآتيين:

نراع إذا الجنائز قابلتنا ... ونلهو حين تمضى ذاهبات

كروعة ثلة لمغار سبع ... فلما غاب عادت راتعات

وهو يهدف من تمثله هذا إلى نقد الوعى الدينى فى قلوب المسلمين، إذ تخلو عن إدمان الفكرة فى الموت وما بعده، فلم يعد الموت يسيطر على تفكيرهم إلا لحظات عابرة تكون عند لقاء الجنازة، ثم لا يلبثون أن تجترفهم الحياة بزحامها ودواعيها فينسون ما كان يجب أن يذكر.

والتذكر العميق للموت وما بعده فرع من أصل «الفكر» الذى دعا إليه الإسلام كادب سلوكى له أثره البالغ فى تكوين شخصية رجل الحضارة الإسلامية وأخلاقه التى لا تتم صلاحيته لرسالته إلا بها.

لقد حث القرآن الكريم على الفكرة فى آيات كثيرة فقال تعالى:

﴿إنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

وكان النبى ﷺ وصحابته أهل فكرة يخلون إليها، ويتعمقون فيها، ويعتبرونها ذكرا خفيا هو أجدى بكثير من الذكر العلنى، لأنها من أعمال القلب التى لا يطلع عليها الملائكة الكاتبون، كما أنها من الأعمال التى يتولى الله تعالى مكافأة العابد عليها عطاء جزلا من معين الكرم الإلهى الذى لا ينضب له معين.

وعلى الفكرة درج آل البيت، وتبعهم جمع كبير تبنوها سلوكا، ودعوا الناس إليها، وأفردها المؤلفون القدامى بأبواب مستقلة فى كتبهم، كالحارث بن أسد المحاسبى فى «أعمال القلوب والجوارح»، وأبى طالب المكى فى «قوت القلوب»، ثم الغزالى فى «الإحياء». وممن عنى بها وبغيرها من عناصر وعى الروح ودسائس النفس فيه: أبو السعود بن أبى العشائر، وله أقوال تستحق البحث فى كتب التراجم المختلفة.

وقد حدد زين العابدين أثر الفكرة فى بناء شخصية المسلم فقال: «الفكرة مرآة المؤمن، يرى فيها سيئاته وحسناته».

أى إنها الميزان الصادق الذى يزن به المؤمن نفسه نفسه، ويلمس مواطن الضعف فى أعماقه، ويحاول على أثر ذلك أن يعود إلى حال من التوازن النفسى فلا يجمح به غرور،

ولا يقنطه خطأ.

تلك كانت حاجة العصر فى زمن الإمام، فقد جمح الغرور بالكثيرين من ذوى الخطر، فلم يروا لهم سيئة، واستفطموا مالهم من حسنات، واختلط الأمر على البعض فأصبح بعد الخطأ صوابًا، ولا أدل على ذلك كله من اعتقاد أولى الأمر سلامة مسلكهم فى سب الإمام على وذريته على المنابر. كما كانوا لا يريدون أن يقتربوا بأفكارهم من الموت وما بعده إلا لفترات قصيرة عند شهود جنازة.

ولم نعثر للإمام السجاد على منهاج للفكرة فى أقواله يحدد معالم الطريق التى يسلكها العابد سوى: الفكرة فى تدبر السيئات والحسنات، وفى الموت.

وهذا المنهاج شامل لكل ما استقصاه العلماء بعد السجاد من عناصر الفكرة وفروعها، فكلها عائدة إلى هذين الأصلين اللذين حددهما زين العابدين فى تركيز ينم عن عقلية واعية مركزة وقلب ذكى يتقن تحذير الأصول، ويكتفى بها عن التوسع فى الشرح والتفصيل.

ولقد حدد الحارث المحاسبى عناصر الفكرة فى «أعمال القلوب والجوارح» فحصرها فى: «فكرة فى عظمة الله تدعو إلى التوحيد، وفكرة فيما يقرب إلى الله من أعمال، وفكرة تكشف نفاق النفس أو اعتدالها على الطريق، وفكرة فى الموت وما بعده».

وتلك كلها كما ترى عائدة إلى الأصلين اللذين حددهما الإمام لا يشذ عنهما لون من ألوان الفكرة.

هى المحاسبة للنفس أولا، وذكر الموت وتمثله ثانيا، وقد يكون ذكر الموت مقدما على محاسبة النفس إذا اجحمت النفس عن مواجهة خطاياها ففرفت بصاحبها عن المحاسبة، فما من فكرة تجدد ملكة المحاسبة فى النفس إلا ذكر الموت الذى يعيدها ما بعده من هول ومواجهة إليهة، ومحاكمة عادلة إلى المحاسبة التى تقوم بدورها الهام فى تعديل سلوك الإنسان.

ومما هو جدير بالذكر أن إبراهيم بن أدهم قد حمل لواء الدعوة إلى الفكرة من بعد الإمام زين العابدين حتى جعلها رأس عبادته، أثيرة لديه على طول القيام بالليل، ودعا إليها أصحابه ومريديه، ونزع بها إلى وعى صوفى جديد عبر عنه حينما سئل وهو خارج من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: «من الأنس بالله».

مكانته فى التصوف

تبدأ أهمية الإمام على بن الحسين فى التصوف من نقطة البداية البارزة فى سلوكه وسمته حين إقامة الصلاة، ومن تلك الرعدة التى كانت تلم به بين وضوئه وصلاته، ثم من بكائه وزهده القلبى الذى لا يتجه نحو الظاهر، وغير ذلك من المسالك التى عرضنا لها أثناء هذا البحث والتى انتهجها الصوفية فى صورة زهد بسيط يتسلح بتلك المواجيد، ثم تبناها الصوفية من بعد، وتعهدوها بالرعاية والنماء، ورسموا لها طريقا يتعهد غراسها فى الأجيال المستقبلة على مدى الأيام.

وقد ظهرت أهمية الإمام السجاد بعد تنظيم التصوف فى طرائق وطقوس معينة.

فقد دخل إلى سند الخرقة حيث لبسها من أبيه الحسين، عن الإمام على عن رسول الله ﷺ، وألبسها هو لإبنة محمد الباقر، ولبسها منه جعفر الصادق، ولبسها منه موسى بن جعفر الكاظم، ولبسها منه على بن موسى الرضا، وألبسها الرضا لمعروف الكرخى، ومنه إلى سرى السقطى، ومنه إلى الجنيد البغدادى الذى تنتهى إلى طرائق التصوف وأسانيد الخرقة جميعا.

وتذكر المراجع الشيعية النزعة كما جاء فى طرائق الحقائق: أن الطريقة الحقة جرت بواسطة أربعة أولياء من المختصين بآل البيت، ثم انتشرت بين العباد والبلاء، وتذكر من بينها: السلسلة الأدهمية، بواسطة سيد الساجدين على بن الحسين، ومنه إلى السلطان إبراهيم بن أدهم.

وإذا كان زين العابدين لم يترك لنا إلا قليلا من الأقوال التى تمت إلى السلوك الصوفى المتأخر بالقربى فإنما كان ذلك لعنايته البالغة بالسلوك العملى، وتصحيح القلب من أمراضه العائقة عن قبول العمل والاستفادة منه، ومع ذلك فقد تلقف الصوفية كلماته من بعده، وتحدثوا بها على صورة أخرى لا تخرج عن معناها، ومن أمثله ذلك قول الإمام: «إن الجسد إذا لم يمرض أشر، ولا خير فى جسد يأشر». فقد اقتبسها وقال: «إن القلب إذا لم يحزن خرب».

ولكن اهتمام الصوفية بالنسبة للإمام السجاد قد اتجه اتجاها عمليا كان قوامه مواجيده العميقة التى كان يتلبس بها بين وضوءه وصلاته، وأدعيته ومناجاته المأثورة

عنه، وبكاؤه، وقوام ذلك كله أنه بقية آل البيت النبوى الذى نجا من سيف الأمويين، ومنه كانت سلالة النبى الطاهرة ومن أبناء عمه الحسن بن على رضى الله عنهم جميعا.

كانت هناك حيرة كما قلنا تساور المؤمنين وسط تلك العواصف التى أثارها بنو أمية باستثناء عمر بن عبد العزيز، واتجه الكثير من الناس اتجاها ماديا، وأوشكت روحانيات الإسلام أن تجنو جذوتها لولا أن تبناها الإمام السجاد، فانتقلت منه إلى أعيان العصر كالحسن البصرى وغيره ممن نقلوها بدورهم إلى تلاميذهم حتى تبلورت فى سلوك مدروس منظم على أيدى الصوفية.

وكانت السمات التى دعا إليها زين العابدين تتلخص فى:

١ – تجريد الباطن من حب الدنيا، وصرفها إلى مستحقيها والاكتفاء منها بالقليل.

٢ – إخفاء الأعمال، والحرص على إخفاء الوجدان الدينى تفاديا للنفاق والرياء.

٣ – الدعوة إلى السلوك الدينى الأصيل في مواجهة أى انحراف يطرأ على الناس في أى عصر من العصور.

وقد أحسن أخلاف الإمام من طلابه ومريديه القيام عل مبادئه هذه، وكان هناك من اختاروا لأنفسهم من بمادئه الثلاثة هذه مبدأ الخفاء ومبدأ رعاية الوجدان، وأهملوا الدعوة فلجأوا إلي الخلوات في بطون الجبال وأعماق الصحارى فرارا بدينهم وبأنفسهم من زحمة الحياة وسحرها.

ولكن ثلاثة ممن اتصلت حياتهم بعصر الإمام كانوا أعلام هداية علي طريقة الذي رسمه قبل وفاته واضحا لاعوج فيه، وهم: إبراهيم بن أدهم، وسفيان الثورى، ومالك بن دينار.

أما إبراهيم بن أدهم فقد ضرب المثل الأعلي في التخلى عن الدنيا حين نزل عن الإمارة وعن ثرائه العريض، وعاش حصارا بسيطا، أو حارسا للبساتين، يعيش من عمل يده ويتحاشي أن تكون عليه مؤنة لأحد بالغة ما بلغت، ثم أضاف إلى منهج الإمام تجريد ظاهره هو الآخر من كل ما يمت إلى حب الدنيا، وكان ذلك حتما حين اختلط أهل التجريد الباطن بالمدعين للصلاح، المتخذين من دعوى تجريد الباطن وسيلة للغش والخداع، لا سيما وأن فاخر اللباس كان قد اشتهر وأصبح مظهرا لعامة الناس من التجار وطلاب المال.

وطور ابن أدهم كذلك مبدأ الإيثار والصدقات الخفية، فجعلها إيثارا بالجهد

الشخصي إذا كان يطحن بيده للأرامل والعجزة ويعين الضعفاء على العمل ويدع لهم أجورهم . وجهر بمعارضته للسلوك المفرق في حب الدنيا، ووجه معارضته للحكام والأغنياء في أسلوب مقنع، فسمى الحكام «الملوك» وسمى الأغنياء «المساكين». وكان في كل ذلك من كبار أهل الوجدان الذين اختاروا الفكرة أساسا ومنبعا له لا يفيض على قلوبهم إلا منها.

وأما سفيان الثورى الذي كان معاصر الابن أدهم وصديقا له فقد أعلن ثورته على أجهزة الحكم، ولقى من ثورته هذه المتاعب القاسية، إذ أصبح مطلوبا لشرطة الخليفة لا يستقر في مكان حتي يرحل عنه فرارا بدعوته، حتى كان موته في البصرة مختفيا في دار أبى منصور السليمى.

ولكنه لم ينزع نحو مسلك ابن أدهم في الجوع الشديد، وتدريب الطلاب على الحرب، بل كان إلى جانب تجريد الظاهر من اللباس الفاخر، والاكتفاء بالقليل الرخيص منه لا يحث على الحرمان من طيبات الحياة، بل يحث على التقلل من هذه الطيبات، وكان هو الآخر بكاء متفكرا يؤرقه الفكر فيما بعد الموت فيفزع في جنح الظلام باكيا فزعا من هول ما عاين وأيقن.

أما مالك بن دينار فقد كان واعظا خرج بالزهد من عزلته إلى عالم الظهور، فوق أنه تبنى دعوة سياسية صريحة قوامها ترهيب الطغاة من الحكام، وتذكيرهم بما ينتظرهم من عسير الحساب.

وهكذا كانت سيرة زين العابدين جزءا هاما من مكونات الشخصية لهؤلاء الأبطال الثلاثة، وكانوا خير خلف لخير سلف، أخلصوا دينهم لله، ودعوا إلى وجهيه المادى والروحي، ولم يخلطوا أفكار الإسلام الأصلية بالفكر الدخيل الذي كان له أسوأ الأثر فيما بعد على الفكر الصوفي الذي كانت مهمته الرئيسية هى: نقل الإسلام صريحا واضحا خاليا من كل زيع، والأخذ بأيدى الملايين إلى الله في تضامن وتآزر يؤكد روح الحضارة الإسلامية، ويسعى لاسترداد مكانتها في قمة التاريخ.

ولكن التوازن قد اختل فيما بعد بين مواهب الروح ومواهب العقل، فتطور السلوك الصوفي إلى نظريات كان لها فعل السحر بين العامة والخاصة، فشدت انتباه الجميع على وجه التقريب، حتى أصبح التصوف نظريا أكثر منه سلوكيا، وخمدت جذوة الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، وعلل هؤلاء النظريون أنفسهم بالمهدى المنتظر، وبالحكومات الباطنية التى تقوم بدلا منهم بالعزل والتولية حسبما تقتضيه ظروف دولة الإسلام.

كان شأن السلوك شأن كل مظهر من مظاهر دولة الإسلام يسير في طريق من طريقين: إما طريق التطرف والغلو، وإما طريق التفريط والإهمال. وكان خط السلوك من هذين الطريقين هو التفريط في العمل، والتطرف في النظريات.

وقد حاول بعض المتأخرين من الصوفية أن يصرف أنظار الباحثين عن استناد طريق التصوف في زين العابدين بواسطة إبراهيم بن أدهم فجعلوها تستند إلى جعفر الصادق، أو إلي على بن موسي الرضا، ومن العجيب أن تكون سلسلة الطريق من أبى يزيد البسطامى عن جعفر الصادق في بعض الأسانيد، مع استحالة لقائهما، إذ توفى الصادق عام ١٤٨ وتوفى أبو يزيد البسطامى عام ٢٦١.

وأحيانا جعلوا السند عن معروف الكرخي عن على بن موسي بن جعفر الصادق. وهو كما تري محاولة لصرف الأنظار عن سند إبراهيم بن أدهم عن زين العابدين، لأن هذا السند الأخير لا يدع فرصة للتطرف ولا للتخاذل في أى شأن من شئون السلوك والوجدان، كما أنه محاولة للجنوح إلى أسانيد أفرط رجالها في الكلام عن المواجيد وكانوا صادقين في حديثهم، ولكنهم استندوا إليهم كوسيلة لإيجاد مبرر للكلام في المقامات والأحوال، لا يجدونه لا عند ابن أدهم، ولا عند زين العابدين.

لقد كان زين العابدين هو المرجع الأول للصوفية المتأخرين، وكان هو الرأس العلوى الزهد الإسلامى الأصيل، وللوجدان الإسلامى العميق، الذي لم يفتح بابا للكلام، من حيث فتح الأبواب كلها للعمل.

ولئن كان من أحفاده من أثر عنه حديث متطرف في علوم الحرف، وعلوم الباطن فإن المرجع والمقياس هو زين العابدين وحده، وما كان هذا التطرف في أسرار الحروف إلا لخدمة أهداف شيعية رأى الصوفية أن يأخذوا بها في سلوكهم ونظرياتهم، ويسيرون في نفس الطريق إلي آخره.

ولنأخذ لذلك مثلا مسألة الصحبة. فالصحبة مبدأ إسلامى أصيل يقضى بوجوب التجمع بين الفئات الصالحة لله وفي الله، كما يقضي تبعا لذلك بهجران الفئات الفاسدة، وقد رأينا زين العابدين يرسم الخطوط العريضة لمبدأ الصحبة، ويحذر من بعض الناس، ويحدد الصلات الواجبة بين المؤمن وأخيه وبينه وبين مجتمعه كله.

فالصحبة في الله هى الشعيرة الإسلامية الأصيلة، وقوامها الأصيل الذى حدده الإسلام هو: التعاون علي مرضاة الله، وعلى البعد عن مكارهه، أى هى: الأمر والنهي والنصح.

وتلك هى صحبة الأكفاء المتناظرين في المنزلة والمكانة، ولكن هناك صحبة إسلامية أصلية أخرى هى: صحبة الإنسان لمن فوقه علما وعملا، وتقتضي هذه الصحبة من المتبوع: الشفقة والرحمة والنصح، ومن التابع الوفاق وحفظ الحرمة وحسن الاستماع والطاعة فيما لا معصية فيه.

وكان الشيوخ بعد زين العابدين من أمثال الثورى وابن أدهم وداود الطائى وغيرهم يؤكدون مبدأ النصح والشفقة على الاتباع، ولا يتخذون لانفسهم مقاما فوق مقاماتهم، ولا يحيطون أنفسهم بالاسرار والأحاجي، وكان الوضوح هو البدء والنهاية في السلوك والإرشاد، وكان التواضع من الشيوخ، والحب من الطلاب، والتقليد للشيوخ في كل ميادين العمل سمة لازمة للجميع لم يشذ عنها شيخ إلا ما كان من داود الطائى الذى كان مضربا عن الاجتماع بالناس، فكانوا ينتظرونه أياما حتي يتمكنوا من لقائه، وكان هذا الاعتزال من داود ناشئا من إغراقه في الاستجماع الفردى، وخوفه على نفس من انتفاعل مع الناس، ولم يكن ناشئًا عن اصطناع أسرار، أو دعوى مقام معين من مقامات السلوك التى نشأت من بعد ذلك.

ومن عجيب أمر الناس في نهاية القرن الأول الهجرى: أنهم كانوا أشد استماعا لكل ما هو سرى أسطورى من المعارف والعلوم منهم إلى الاستماع للأوامر الصريحة الصادرة في الكتاب والسنة للجميع بالعلم والعمل، وعدم الاندفاع وراء الأسرار، والتشدق والتفيهق، فقد أكد القرآن الكريم أنه ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

ولكن العجب ينقضي أو يكاد ينقضي إذا تلمسنا الأسباب الكامنة وراء هذا الفتور من جهة، ووراء الاندفاع وراء الأسرار، والمضي في تيارها المتطرف، فوجدنا أن الشعب الإسلامى كان قد أصيب في ذلك القرن بثلاثة من المشاعر أملتها ظروف سياسية هى:

١ - الندم على التفريط في نصرة الإمام على وآل بيته.

٢ - والحب الكامن لله ورسوله وآل بيته.

٣ - والشعور بالاضطهاد والذل عقب إعلان زيد بن أسلم بعد قتل الإمام الحسين رأيه الصادق حين قال: «قتلتم ابن بنت رسول الله ﷺ، وأمرتم ابن مرجانة، أنتم والله العبيد بعد اليوم». وأعلن ما سيقاسيه المؤمنون من اضطهاد حين قرر أن بنى أمية سيقتلون خيار الناس، ويستذلون شرارهم. وليس بعد ذلك ذل لاحق بأمة كان قوام

دستورها الأمر والنهي، وبهما استحقت أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

كان الندم عاملا من عوامل العزلة والانفرادية والوجوم والهم اللاحق، كما كان الشعور بالاضطهاد عاملا من عوامل الإحجام عن مواجهة الحقيقة، وباعثا من بواعث إهمال الأمر والنهي، وترك العامة فوضى لا سراة لهم، ولا مرشد يحجبهم عن الخرافة، والتعلق بالخيال والأوهام كبديل عن الحرية التى افتقدوها، وعن غرة الإسلام الممنوحة للعاملين.

وكان الحب إلى ذلك كله يذكى جذوة التطلع إلى تعبير عنه، ولم يكن التعبير عنه كامنا في تقليد المحبوب والسير بقدر ما كان إغراقا في إضفاء الأسرار عليه، والتطرف في هذا الإغراق.

كان هناك حب دون شك، وكان هناك تطلع دون شك، ولم تكن هناك عزيمة تعين على العمل دون شك، ولم يجد العامة متنفسا إلا في فكرة تجدية الإسلام التى نادى بها أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (ت ٩٧) المعاصر لعمه زين العابدين، والذى شرد عن تعاليم أبيه وأعلن رأيا كانت له خطورته في مجال التصوف.

خرج أبو هاشم هذا وهو علوي غير فاطمي - على المسلمين بنظرية رواها ابن سعد في طبقاته، وابن خلدون في العبر، وروتها كتب النحل الإسلامية قال فيها موجها كلامة إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس: «لم يمض مائة سنة من نبوة قط إلا انتهت امورها، لقوله عز وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فإذا دخلت سنة مائة فابعث رسلك ودعاتك، فإن الله متمم أمرك».

وقد تلقف الصوفية هذه النظرية فاسبغوا على شيوخهم صفة تجديد الدين، ولقب الكثير منهم بمجدد الدين، أو مجدد المائة، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعداه الصوفية إلى اقتباس افكار ابى هاشم هذا التى تدعى أن لكل ظاهر باطنا، ولكل شخص روحا، ولكل تنزيل تاويلا، ولكل مثال في العالم حقيقة، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني، وهو العلم الذي استأثر به على عليه السلام، ثم ابنة محمد بن الحنفية، ثم أفضي بذلك السر إلى ابنه أبى هاشم، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقا، وعلي ضوء هذه النظرية أسبغ الصوفية على الشيوخ صفة الاستئثار بالعلم اللدنى، وعلم الأسرار الإلهي، حتى عد الشعرانى منها ما ينوف من

عشرة آلاف علم.

ومضي أبو هاشم في خروجه عن نطاق المنهاج الذى رسمه آل البيت النبوى فأشار على محمد بن على بن عبد الله بن عباس الذى يتفق معه في مقاومة الأمويين: أن يختار دعاته فليكونوا اثنى عشر نقيبا، فإن الله لم يصلح بنى إسرائيل إلا بهم، وسبعين نفرا يتلونهم، فإن النبي إنما اتخذ اثنى عشر نقيبا من الأنصار اتباعا لذلك.

وهكذا أصبح شيوخ التصوف ممتازين عن سواهم بالعلم السرى، وبصلاحيتهم للاجتهاد في تجديد الدين، وبحريتهم في إضفاء الألقاب على المريدين، ومن ثم أصاب نظام الصحبة الإسلامى تغيير جوهري تطور فيما بعد إلى نوع من الإفراط والغلو.

ولم يكن لهذا التطور أصل في سلوك زين العابدين ومعاصريه من أبناء عمه الحسن، وكانت الحالة النفسية الناشئة من تداخل الشعور بالندم والاضطهاد والحب عاملا رئيسيا في اندفاع الكثيرين من رجال التصوف نحو الشطط ما دام لهم مستند في تجديد الإسلام والعلم السرى.

وكان هذا الشطط هو الذى دعا الحارث ابن أسد المحاسبى إلى مهاجمة الصوفية في عصره واتهامهم بالكذب في دعوى الحب، إذا أنهم لا يلتفتون إلى سلوك المحبوب، ولا يكلفون أنفسهم عناء تقليده في العمل الذى يعتبر الدليل الأول والأخير على صدق دعوى الحب. كما رماهم في كثير من المواضع من كتابه «آداب النفوس»، و «أعمال القلوب والجوارح» بأن فيهم غلطة وجهلا بالأخبار. ويبدو أن فكرة الانتقال من مكان إلى آخر في لمح البصر، وفكرة رؤية الملائكة ومخاطبتهم كانت قد برزت في عصر المحاسبى، لأننا نراه يهاجمها هجوما عنيفا في كتابه آداب النفوس.

ووجد الصوفية في هذا الميدان الجديد بديلا من المجاهدات الشاقة فأمعنوا في دعوى الأسرار حتى أن بعضهم كان يصلى في الكعبة وهو بعيد عنها بآلاف الأميال، ويعود في نفس الليلة على الصورة التى بنى عليها المحاسبى هجومه العنيف على القائلين بها.

ونحن لا نحجر على فضل الله بإنكار الأسرار، وإنما نقول: إن إذاعتها علي هذه الصورة فتح باب الدعوى على مصراعيه، فادعى الكذابون ما ادعى الشيوخ، واختلط الصادق بالمنافق وله في دعوى السرية حصن حصين.

واضطرب نظام الصحبة الذى يعتبر أساس التصوف كما يعتبر أساس الحياة الاجتماعية في الإسلام، حتى لقد روى عن ذي النون المصرى أنه قال: «ليس مريد ألبته

من لم يكن أطوع لأستاذه من ربه». كما روي التشيرى عن الأستاذ أبى على الدقاق أنه كان يتساءل: «هل يحتمل أن يكون مقام النبي الذى يبعثه الله فوق مقام شيخه؟».

ولكن السهروردى فصل في هذه القضية بما يقرب من الصواب، وبما يكشف عن حقيقة هامة في مسألة الصحبة وامتزاج الأرواح وتلاقيها فقال في عوارف المعارف، العوارف: «إذا دخل المريد الصادق تحت حكم الشيخ وصحبه، وتادب بآدابه، يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد، كسراج يقتبس من سراج. وكلام الشيخ يلقح باطن المريد، ويكون مقام الشيخ مستودع الحال، وينتقل من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال».

والواقع أن هذا الذى يذكر السهروردى صحيح، ولكن اتخاذه أصلا للسلوك، والإقامة عليه، والعناية بالحال السارى من الصاحب الأعلى مقاما إلى الصاحب الأدنى، وعدم استخدام هذا الحال في الاستزادة من العمل هو الخطر الداهم الذي جاء به هذا الاتجاه الجديد في وقت لم يكن الناس بحاجة إليه بقدر ما كانوا بحاجة إلى العمل البسيط الخالى من التعقيد.

ولقد كان الصحابة أنفسهم يحسون هذا الحال السارى إليهم من النبى ﷺ، وكانوا ينكرون أنفسهم حينما يفارقون مجلسة إلى اعمالهم المعاشية، وكانوا يتعهدون هذا الحال فيهم، ولكن لم يؤثر عنهم أنهم أتخذوه موضوعاً للحديث، وأساسا للبحث والفحص يطغى على العمل الذى كرسوا حياتهم من اجله.

وكانوا يبكون، وكانوا يشهدون الغرائب حين تلاوتهم للقرآن، وحين الصلاة، ولكنهم لم يتخذوا من ذلك الوجدان ولا من تلك الغرائب موضوعا لاحاديثهم، كما لم يحاولوا الاندفاع وراءها، وانتظارها، ولا قياس أنفسهم بورودها.

كانت حضارتهم صاعدة، وكانت اعمالهم كلها مكللة بالنجاح، ومع ذلك لم يقعدوا عن العمل، ولم يثرثروا بالاحوال والمقامات، ولم يحيدوا عن منهاج العمل المرسوم الذى نقله المحاسبى فى أعمال القلوب والجوارح مرتبا حسن أهميته عندهم، فجعل معرفة الله تعالى في الدرجة الاولى، وتتبعها إقامة الصلاة، ثم إرفاق بعضهم بعضا، والسعى على الأرامل والمساكين من إخوانهم.

فهل كان المسلمون بحاجة إلي ترديد الحديث عن المقامات والاحوال وحضارتهم تتدهور عن قمتها في سرعة، والوعى الدينى يكاد يمحى من القلوب، والدنيا بقتل،

والقلوب تنعقد على حبها؟

ولا نعتقد أن يقول بهذا أحد، ولكن الذي كان المسلمون بحاجة إليه هو إحياء السنة، والتزام الكتاب، والعكوف على هذين الأصلين لا يتعدوهما إلي ما سواهما، والاحتفاظ بالمواجيد والمشاعر التى سميت فيما بعد بالأحوال لا يذيعها إنسان لأخيه، ولا يتخذ منها مقياسا لنفسه ولا لغيره.

ولكن الله تعالي أراد بحكمته أن يتم الشوط إلى نهايته لحكمة تربوية عليا هي أن يتم إقتناع المسلم بفساد هذه الطريقة من داخل نفسه، حينما يرى النتيجة العملية لإهمال العمل، والعدول عنه إلى النظريات.

ومما يوسف له أن يتطور هذا السلوك إلي ثرثرة لا يحيد عنها مريدوا طريق التصوف في رواية الكرامات والأسرار ودعوى الصدق، وإسباغ القطبية على الشيوخ، والشيوخ بدروهم في كثير من الأحوال ينفعلون لهذه الألقاب، وكان ما كان من انحراف الطريق الصوفى عن جادته الأولى التى رسمها آل البيت، ولكنهم الآن بدأ يفتحون عيونهم علي تركه منحوسة من الهوان في العصر الحاضر، فبدوا بحمد الله في تنقية الطريق من الأشواك، وتيسيره للسالكين سنيانبويا يعود إلى ما كان عليه النبى ﷺ وصحابته وال بيته، ومن هنا كانت أهمية إحياء سيرة آل البيت النبوى، لتكون نبراسا ينير الطريق للسالكين على الحق بعد انقضاء التجربة التى لم يكن عنها محيص، والتى كانت لها بركات فاضت من الله عالي شأنه في كل نعمة وفي كل بلية.

واية تلك البركات التى تمخضت عنها بلية التحول النظرى من المنهج العملي ظهور دراسات نفسية عميقة في ميدان السلوك الصوفى لا يستغنى عنها رجال الحضارة الجديدة في عودتهم إلي منهاجهم الأول.

لقد جد التابعون لآل البيت في استقصاء علل النفوس والقلوب الداعية إلى التخاذل في العمل، أو إلى الخروج به عن طريقه الصحيح فدونوها في صورة وصايا أو في صورة موازين فارقة بين حق العمل وباطله من الوجهة القلبية، واهتدوا في وصاياهم وموازينهم بالسنة النبوية وبالقرآن وبما أثر عن الصحابة وال البيت، وعني بتلك الدراسات البادئة كثيرون من السلف منهم: الحسن البصرى، ومالك بن دينار، والثورى، وابن أدهم، وغيرهم كثيرون امتازوا بالدقة في الفقه، والعمق في كشف خفايا النفوس وتقلباتها.

ثم جاء أستاذ الدراسات النفسية الإسلامية الحارث بن أسد المحاسبى فجعل لآفات

النفوس والقلوب أبوابا مستقلة تعهدها بالبحث والاستقصاء والعمق، كما حدد معالم العمل الصحيح ومقوماته في أبواب مستقلة كذلك، وكانت بحوثه هذه بداية دراسات نفسية منظمة تعنى بالتحليل، والخوض وراء أعماق النفس، وتتبع حركاتها وأساليب خداعها لصاحبها، فأصبح للسلوك عدة علمية؛ كما كان للعمل عدة شرعية تعنى بالشروط والأركان وتصحيحه من الوجهة الشكلية.

وتلك البحوث والدراسات وظهورها علي هذه الصورة من العمق والثراء دليل على أن هذا التحول الذى حدث بعد عصر الراشدين كان أمرا طبيعيا، إذ أن المذاهب العظمى لا تمضي في طريقها المراد لها إلا بعد أن يصيبها اضطراب وزلزال بادئ الأمر.

لقد أصاب الناس في حمل الشريعة نفس الاضطراب والزلزال ممثلا في الردة التى حدثت بعد وفاة النبى ﷺ ، وأصاب الناس اضطراب وزلزال في السلوك بعد عصر الراشدين وبعد عصر زين العابدين بالذات باعتباره آخر الأئمة الملتزمين بمنهج العمل دون منهج الكلام. وكان لزلزال الشريعة رادع هو السيف، ولم يكن لزلزال السلوك رادع سوى الزمن والتجربة المرة التى خاضها المسلمون إلي وقتنا هذا. فالسلوك وآقامة أمور قلبية ليس للسيف عليها سلطان.

كان الزلزال الذي أشار القرآن الكريم إلى ضرورة إصابة المؤمنين به لتمحيص إيمانهم دليلا علي جسامة شان الإيمان والإخلاص وعلوهما عن ادعاء المدعين، فدخل الناس تجربة طويلة تمخضت عن دراسات وموازين نفسية هامة كان لابد منها في عصرنا الحاضر لإثبات غنى الإسلام عن دراسات النفس المستوردة التى لا زال الناس يتعلقون بها، بينما لم يحاول عالم من علماء المسلمين أن يجمع ما تناثر من تلك الدراسات في كتاب مستقل يكون مادة لبحوث إسلامية بحتة، اللهم إلا ما حاوله الأستاذ العلامة مصطفى بن كمال الدين البكرى في كتابه المخطوط «العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية».

وهكذا تكمن النعمة في البلية، والبلية في النعمة، «وعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم».

فما يظنه بعض الناس شرا من إهمال مناهج آل البيت، والمضي في المناهج النظرية كان خير بظهور الدراسات النفسية الإسلامية البحتة، حتى تكون العودة على أسس سليمة من موازين الإسلام الخالصة.

وفاتـــه

لقد كان استعداد الإمام للموت ووصيته فيما يصنع به بعد موته أصلا هاما من أصول السلوك يمكن أن يكون أصلا لا يحيد عنه الإنسان.

فقد أوصى في رواية ابن سعد: «ألا يؤذن بموته أحد، وأن يكفن في قطن، وأن يجعل في حنوطه مسك، وأن يسرع به المشى».

فعدم الإيذان بموته إيثار منه للخمول، ومجانبة منه للشهرة، وإغلاق لباب الغلو الذي كان قد انفتح ويوشك أن يشمل القيم الإسلامية كلها.

فإذا كان جده الأعلى ﷺ يحب أن يؤذن إذامات أحد الأصحاب، ويحب أن يجتمع الناس على جنازته انتهازا للثواب، ورجاء نفع الميت بدعاء إخوانه وصلاتهم عليه، فإنما كان ذلك والغلو مغلق الأبواب، والخير مقبل، والشر مدبر. أما زين العابدين فقد كان بصيرا بعصره، خبيرا بمسالك الفتن فيه، فآثر أن يجتهد برأيه ويؤثر خمول الذكر على شهرة الموت التى قد تكون بابا من أبواب الشر لم يشأ أن يسهم في فتحه، وقد انفتح بالفعل بعده فيما نرى من دعاوى العامة عند موت عالم أو ولى من أولياء الله تعالي.

وكانت وفاة الإمام في سنة أربع وتسعين، في أولها عن ثمان وخمسين سنة. في سنة الفقهاء. التى اشتهرت بهذا الاسم لكثرة من مات من الفقهاء فيها، كسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وغيرهم.

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: توفى سنة اثنتين وتسعين. وقال بعضهم: سنة ثلاث وتسعين، وأغرب المدائنى فقال إنه مات سنة تسع وتسعين. والأول هو المشهور.

ولما وضع الإمام ليصلى عليه، اجتمع إليه الناس من كل فج ليشهدوه، وبقي سعيد بن المسيب وحده في المسجد. فقال له: خشرم: ألا تشهد هذا الرجل الصالح في البيت الصالح؟ فقال سعيد: أصلى ركعتين أحب إلى من أن أشهد هذا الرجل الصالح في البيت الصالح.

ويبدو أن الناس قد ظنوا أن ابن المسيب يؤثر صلاة التطوع على شهود الجنازة، لأن

سليمان بن يسار خرج إلى الجنازة فصلى على الإمام، وتبعه وهو يقول: «شهود الجنازة أحب من صلاة التطوع».

والحق أن إيثار ابن المسيب للصلاة لم يكن ناشئا عن جفاء للإمام، ولا عن تفضيل لصلاة التطوع على شهود الجنازة، لأن ابن المسيب كان فيما يغلب على الظن قد أحس دنو أجله، وعاين النهاية المحتومة، لأنه مات بعد الإمام بقليل، وللمؤمن دلائل وعلامات ترهص بانتهاء أجله نعرفها من كثير ممن لم يبلغوا درجة ابن المسيب. ولذلك وحده آثر أن يضاعف جهده في الاستعداد للقاء الله تعالى، وأن يكون ما بقي من عمره من أيام معدودة عملا متواصلا لله تعالى رجاء أن يكون له منه رحمة أو طريق إلى رحمة الله تعالى.

أما أن يكون ابن المسيب جافيا للإمام فلا. فهو يعرف قدر الإمام ويدرك منزلته من النبى ﷺ، ومكانه من الورع. فقد قال له رجل: ما رأيت أورع من فلان. فقال سعيد: هل رأيت على بن الحسين؟ قال: لا. قال سعيد: ما رأيت أورع منه.

وكان دفن الإمام بالبقيع. وليس في ضريحه الموجود في مسجده بالقاهرة. فهو ضريح رمزى له رضي الله عنه، وقيل: إن فيه زيد بن على بن الحسين. والله أعلم.

تم كتاب الإمام السجاد

علي زين العابدين

الحمد لله

إشراف محمد بن على بن يوسف
مكتبة القاهرة
الأزهر
٥٩٠٥٩٠٩
ص. ب.: ٩٤٦
العتبة

الفهـــرس

